العناصر التي خلدت كتاب كليلة ودمنة

بقلم نسيم نصر

* * *

عبد الله بن المقفع فارسي المولد والنزعة والثقافة ، عربي النشأة والبيئة والادب . زرادشتي اسلم ، ولكنه ظل متهما بالزندقة .

رجل نبيل الخلق ، حصيف العقل جريء القلب واللسان . عرفت له اثار في الفلسفة والاجتماع والتاريخ والادب .

ابن المقفع طليعة كتاب الحرف العربي في دروب الفكر، بعيدا عن دواوين الملوك والحكام، وقيدوم المصلحين الحكماء في النظم السياسية والادارية والاجتماعية .

رائد الفكر العربي في رحاب هذا المثلث الذي نهل من موارده رواد الكلمة العربية ، في العصر العباسي الاول . وهو المثلث : اليوناني – الفارسي – الهندي .

رجل مات ضحية جراته في سبيل اعلان كلمة الحق ، واعلاء صوت الحكمة ، في دولة عربية ساعد في وضع اساسها شعوب غير عربية ما لبثت ان تململت تعبث سرا وعلنا في تقويض تلك الاساس ، فعرف تململها ذاك بالشعوبية .

ولكننا ، في هذا الحديث ، مع شعوبي ، ان صح انه كان كذلك ، اتاح للعربية ان تأخذ طريقها الى جواد من الادب الحافل بقيم الانسان الناضج المعطاء . وهكذا تكون الشعوبية الادبية رافدة من روافد الفن والفكر في ادب العرب .

ولكي نقيم الدليل على هذا النضج المعطاء نتناول ، من كتبه ، الكتاب الذي عرف آية من فرائد دنيا الكتاب ، وهو كليلة ودمنة .

لن نقف طويلا لكي نحصحص القول : هل هو كتاب مترجم أم موضوع ، وانما نكتفي بالترجيح القائل انه مترجم في بعضه وموضوع في البعض الاخر . ولكنه ، وقد تصرف فيه ابن المقفع تصرف المؤلف الواضع ، وفقد ما كان من اصل له غير عربي ، اصبح المؤلف والكتاب اسمين متلازمين يعرف احدهما بالاخر ويشتهر بشهرته ، وينحصر قدرهما في نطاق الادب العربي . فما هو هذا الكتاب ؟

هو كتاب اعتمد فيه المثل الخرافي اعتمادا جعل منه عالما حافلا بالتعاليم الاخلاقية والاجتماعية والسياسية . واذا بهذه المشاركات البشرية والدفق الغامر من المركب الانساني تطبع هذا الكتاب بطابع ميزه في نوعه بخصائص كتبت له الخلود . واذا بهذا الكتاب يتناول الإنسان بكامله . او ليس الانسان المعنوي هو العاطفة والعقل والخيال ؟ وعلى دنيا هذا المركب الانساني الزاخر بالحياة والحركة يشرف ذوق اديب حكيم فيه من مقومات البناء اللفظي صفاء الإنسجام في الاجزاء وتناغم المؤالفة بين اللفظ والمعنى .

وهكذا تجد بين يديك كتابا يقيك جموح العاطفة وجفاف العقل اذ يمزج ما بينهما بصور رائعة تثب معانيها الى الذهن وثبا لبقا رقيقا . فاذا بالمركب اللفظي يصبح تعبيرا عن الحق والجمال اللذين انبثت قوى الكاتب تطلبهما في جنبات الوجود عن طريق التفاعل الكلي . وفي حمى المضي في هذا التفاعل تنصهر معاني الحياة في حدس الكاتب فتزدحم المعاني لتتدافع في اخراج فيه من مرهف الحس بقدر ما فيه من حدة الذهن ونفوذ البصيرة وصفاء الضمير .

ولئن كان ما ذكر من ان ابن المقفع له كتاب مترجم عن الفلسفة اليونانية اسمه « انا لوطيفا » ، اي تحليل القياس، غير صحيح فيكون هذا التحليل القياسي حقيقة ماثلة في كليلة ودمنة ، ويكون جانب كبير من « الانابتيسم » اليونانية قد جاء في دفتي كتاب صغير الكم كبير القيمة .

فعلام قامت هذه القيمة الكبيرة في هذا الكم الصغير ؟

لهذا الكتاب مقومات تجمع في اربعة عناصر هي : الموضوعية المركزة ، والرمزية المنطقية ، والنطاق المتماسك الجامع ، والسهولة الممتنعة .

وهوذا نحن نمضي تباعا في الكشف عن هذه العناصر وتوضيحها فنقول : كليلة ودمنة اول كتاب في العربية ارتكز بمجموعه على محور فكري لا ينقطع منه مهما بدا انه بعد عنه ، وهو الانسان في خلقه ومجتمعه وسياسته ودينه . هذا الانسان الذي تتبارى نماذجه الثلاثة : الهندي والفارسي والعربي ، تحت عينيك ، على مسارح الحياة ، بما في الحياة من الغث والسمين ، والملاحة والقبح ، والصدق والكذب ، والعدل ، والظلم ، والغضب والحلم ، الى اخر هذه السلسلة من المتناقضات التي يتصف بها البشر : طبعا او ملكة او تكلفا او تقليدا .

ولما كان ابن المقفع اديبا نبيل الانسانية مرهف الحس والشعور ساءه ان كان الرعايا العباسيون يحيون حياة المظلومين يستبد بهم الاقوياء . لذلك رمى الى وجوب استعمال العقل وضرورة اعتماد التعاون والاتحاد للوقوف في وجه المظالم . فلجأ الى المثل الخرافي ليمضي في رمزية لفظ وواقعية معنى يجعل فيها من حياة تلك الحيوانات ، التي حملها على تمثيل ادوارها طبيعية واضحة ، شعوبا مظلومة ، ويتفاعل الحس والعقل فتتفجر في نفوس ابناء عصره براكين الشعور بالحيف ، وتستيقظ في ذواتهم حماسة الانسان الاصيل، فيندفعون ويتدافعون الى الدفاع عن نفوسهم والمطالبة بحقوقهم بما في طوقهم من منطق الحق وحيلة المغبون الحكيم وتضامن الجماعة المتماسكة .

في هذه الرمزية المنطقية تتجلى القيم الثلاث التاريخية والفلسفية ، والادبية التي جعلت كليلة ودمنة كتابا فريدا

في نوعه من حيث النطاق الجامع والمجاري المترافدة الى المصب الواحد . فهو الى جانب ما يشير اليه من المنافسات الدينية كالعداوة بين البوذية والبرهمية ، وما ينوه به من مثل مذهب النباتيين وتحريم اللحوم ، والنظرة السيئة الى المراة ، الى جانب هذا يذكر بما كان للفرس من زهدية تميزوا بها ، وبما كان لفتوح الاسكندر من مثل الاساطير في تاريخ الشرق . ولكنه في جوهر الامر ، كان يريد ان ينفذ الى ما يجري في بلاطات الملوك قديما من مكايد ووشايات ، والى ما كان يقصد اليه من الكشف عن حاجة الدولة العربية آنذاك الى الاصلاح والتنظيم .

ولست ادري لماذا يلح بعض الباحثين والمعلمين ، ممن يدرسون ويدرسون ابن المقفع ، على التأكيد بأنه زنديق ، وانه رمى الى الغمز بالاسلام كدين ؟ في حين ان هؤلاء كغيرهم من متناولي هذا الاديب الحكيم بالدرس لا يستطيعون الا ان يقعوا عليه مطالبا بالرحمة ، محبا للخير مناديا بالفضيلة ، حاثا على التضامن الامثل . وهو لا ينتهي من مثل تمثيلي دون ان نراه مصوبا جهده لكي ينال كلا ما يستحقه من عقاب او ثواب . وهاكم ، مثلا على هذا ، ما تعظ به أم الاسد ابنها الملك ، وقد اطلع على براءة ابن آوى الناسك ، الذي صورته بطانة السوء خائنا الامانة ، قال :

« ان الملك حقيق الا يرخص لمن سعوا به لئلا يتجراوا على ما هو اعظم من ذلك ، بل يعاقبهم لكي لا يعودوا الى مثله . فانه لا ينبغي للعاقل ان يراجع في أمر الكفور للحسنى ، الجريء على الغدر ، الزاهد في الخير ، الذي لا يوقن بالاخرة . وينبغي ان يحزى بعمله . »

ومن تحرى المنازع الفلسفية في هذا الكتاب وقع على الدعوة الى الزهد والتقشف تأثرا بالحكمة الهندية ، ووقع على الافلاطونية ظاهرة في رسم الخطوط الواضحة للدولة المثالية ، ووقع على الارسطاطولية بادية في اخضاع كل الخرافات الممثلة في مغازيها ومراميها لاحكام العقل ، وتضامن الرعايا للوقوف في وجه الاستبداد والحكم الغاشم . وفي هذه الظاهرة التضامنية العاقلة دعوة الى الديمقراطية في اصدق وجوهها .

والامثال ، في كليلة ودمنة ، تبدو كلها مسرحيات تتفاوت طولا وقصرا ، ولكنها لا تختلف البتة في ان وراء كل عقدة وحل فيها درسا وعبرة . والاشخاص في هذه التمثيليات تنبض فيها الحياة نبضا قويا ، لان كاتبها وضع فيهم من زخم العاطفة نصيبا كبيرا ، ووفق بين غرائز الحيوانات وسجايا الناس وتنوعهم وتقلبهم توفيقا رائعا . وهكذا تآلفت عناصر الادب وتمازجت من عاطفة وفكرة وخيال ، فاذا العمل الفني ليس لمجرد غاية فنية ، وانما هو استعراض للحياة تستكمل فيه عناصرها في ضرب من السهل الممتنع ما يزال حتى اليوم متحديا من البيان المنطقي الرائع .

اين الربيع ؟

قالوا الربيع اتى فاين صداه ؟
أفلا تحس به وانت تراه ؟ !
بالامس كنت مع الطيور ترنما
ومع الزهور تضوعا بشذاه
ومع الرياض الحاليات شقائقا
ومع الحقول المرعات جناه
ومع انبلاج الفجر رنة مزهر
وهتاف مفتتن بسحر هواه ..
ومع الشروق تبسما ومع الضحى
شمسا ترف على رحيب مداه
ومع النسيم تخطرا ومع الندى
دررا مفوفة بسر سناه
قلت : الربيع هو الشباب فان مضى
عهد الشباب فلا ربيع سواه !!

القاهرة — سلامة خاطر

اجل لا بد من الوقوف قليلا عند الشكل الحرفي الذي افرغ فيه هذا الكاتب آياته الفكرية ، فكان صاحب مدرسة الانشاء الاولى في أساليب الكلام العربي المنطقي. نقول هذا احتفاظا لعبد الحميد بن يحيى ، المعروف بالكاتب ، بلقب صاحب مدرسة الانشاء الاولى في الترسل . ولئن كان بعض المصنفين للنثر العربي يرون ان ابن المقفع قصّر عن صاحبه وصديقه الحميم ، الذي اوشك أن يفتديه بدمه ، من حيث مرونة العبارة وصفاؤها الفني ، فان لمنشىء كليلة ودمنة عذره في انه كان متهما للقدر المعنوي والوضوح المنطقي اولا فكان لا بد لعبارته من تفقد شيئا من ميزات الفصاحة في اناقتها الممتازة .

واما ما عيب عليه من حيث السهولة واعتماد العبارة مسبكا للمعنى ، تطول بطوله وتقصر بقصره وتتسلسل بتسلسله ، فعلى هذا اجاب عندما سئل ما هي البلاغة ، فقال : « هي التي اذا رآها الجاهل ظن انه يحسن مثلها. » وله في مكان آخر قوله ، موصيا بالسهولة والوضوح : « اياك والتتبع لوحشي الكلام طمعا في نيل البلاغة ، فان ذلك هو العي الاكبر . »

هذا تنويه عابر بقدر « كليلة ودمنة » وصاحبه عبدالله ابن المقفع . فان من تناول الانسان موضوعا يخلدموضوعه بخلود الانسان وتتسع الكلمة فيه بقدر اتساع رحاب الحياة الانسانية .

نسيم نصر

الفراغ

الفيتني يوما انائي فارغ   والناس يصطخبون حول انائي
كل تذوق ما اشتهاه شاربا   منها ، وما امتلأت بغير هواء
طربوا وما شربوا الذي أودعته   دني ، ولا عرفوا سنا صهبائي

* * *

آليت لا القي انائي فارغا   لمراشف الاوهام والاهواء
املأ فراغك ، رب كأس فارغ   في الناس أفتك من فم الرقطاء
قد تخلط الافعى به من سمها   وتدير باسمك منه للخلطاء
كن في الإنام وعاء نفسك من يكن   لهم وعاء كان شر وعاء
الناس ان وجدوك سمعا فارغا   ملأوك من اقوالهم بهراء
واذا هم وجدوك قلبا خاليا   من حبه ملأوك بالبغضاء
لا بد من ان يسكنوك ، فلا تكن   للناس مأجورا بغير كراء

* * *

املأ حياتك ، ولتكن الضحى   مملوءة من ذاتها بضياء
من ليس يشرق من توهج ذاته   مسحت ملامحه يد الظلماء
كم جارح شفتي بفارغ كأسه   منها لينقع غلتي بدمائي
اربا بكأسك ان تلم حطامها   بسمات هزء عن شفاه ظماء
هذا انائي صغته من معدني   وملأته للظامئين بمائي
لم تبك اجفاني بغير مدامعي   لم تشد حنجرتي بغير غنائي
اني عجبت لمعشر قد انكروا   صوتي وهم في الشعر من اصدائي
ما حيلتي في يابس متحجر   ينعي علي تفجري ونمائي
متخبط الاوهام مملوء بها   كالقبر بالاشباح والاشلاء

* * *

ما ان نظرت الى فراغي مرة   الا خجلت بزخرفي وطلائي
قل للمدل على الورى بجفافه   ان لم تجد ماء فماء حياء
كم مالىء جفنيه مني قد نأى   عني لتملأ سمعه انبائي
ماذا اضلك يا اخي عن منبعي   لتروح تشربني من الانواء

* * *

أترعت كأسي من عصارة مهجتي   وادرت من روحي على الندماء
طربوا بما شربوا ، فما اسكرتهم   بشعاع خمري او بريق انائي ! !

فارس سعد



عصفورة من الغرب

بقلم الدكتور محمد حاج حسين

تناولت فطوري بسرعة وانا اجدف على السينما ، فقد دعوت اسرة صديقة الى حفلة الساعة السادسة مساء . ولهذا وجب علي ان استيقظ مبكرا واذهب الى دار السينما ، وانتظم في صف طويل حتى يأتي دوري ليتسنى لي قطع التذاكر .

وسارعت بالقاء نفسي في اقرب سيارة اجرة ، وبعد عشرين دقيقة وصلت الى سينما «ريفولي» . وكادت لوثة تصيبني عندما ابصرت ذنبا طويلا امام السينما ، وعراني اضطراب شديد ، فاذا وقفت في هذا الصف الطويل .. متى ، — يا رب — يأتي دوري ؟ ولعنت الساعة التي وجهت بها الدعوة الى صديقي الدكتور عبد الرحمن واسرته . وخطر لي ان اتصل هاتفيا بصديقي الدكتور ، واعتذر له .. غير انني سرعان ما وادت هذه الخاطرة ، فاشتريت جريدة الاهرام ، وانتصبت واقفا وراء ما لا يقل عن خمسين شخصا بانتظار دوري . وكان الله في عون الصابرين امثالي .

وانتهيت من قراءة الجريدة ، وابصرت امامي قرابة ثلاثين شخصا ينتظرون دورهم . واصطكت ركبتاي ، وتخاذلت ، والم بي ضجر شديد ، وتوترت اعصابي .. ورحت اتفلسف .. لا بد ان يكون هذا الفيلم جيدا حتى حدث هذا الازدحام الشديد ، ونظرت ورائي ، فقد كان الذنب اطول من شهر الصوم . وكان تزحزح الصف امامي في بطء شديد . ونظرت الى ساعتي .. لقد مضى علي ما يقرب من ثلاثة ارباع الساعة وانا في هذه الوقفة اللعينة .. وتسليت بعد الذين كانوا امامي .. يا لفرحتي .. العدد يتضاءل الى العشرين ، وتنفست الصعداء ، وتمتمت بيني وبين نفسي: كل ازمة الى انفراج .

وفجأة اخذت عيناي منظرا رائعا ابهجني ... فتاة اجنبية شقراء زهراء كلها فتنة واغراء في حدود العشرين من عمرها الغض ، افرغت على جسدها الرشيق ثوبا احمر انعكس فيه بريق جسدها الناعم البضاضة ، وكشف عن صدر ناهد مليء فيه الق ونور ، وحدقت فيها باعجاب شديد .. واعترف ، انها اسكرتني ، ولست ادري كيف صبت لي الخمر .. وتطامن بي ارتياح شديد وزال عني التوتر الذي اعانيه ، واقتربت الصبية الفاتنة من عجوز اجنبية كانت امامي مباشرة ، وحدثتها بالافرنسية قائلة : هل يمكن ان تتفضلي بشراء تذكرة لي ؟.

وهزت العجوز راسها نفيا ، فتحولت الفتاة الى امرأة اخرى ورائي .. وكان الرفض .. ثم تقدمت بضع خطوات ، وطلبت الى شاب فارع القامة ، عريض المنكبين ان يؤدي اليها مشكورا هذه الخدمة .. ولم يأبه لها .. وحنقت على هؤلاء الذين رفضوا شراء تذكرة لها .. وتزحزح الصف .. وامامي خمسة فقط ، وكانت الفتاة الاجنبية لا تكف عن الرجاء لكل الواقفين .. غير ان هزة الراس القاسية بالنفي كانت تجبهها .. وحنقت عليها .. انا الوحيد الذي على استعداد تام لشراء تذكرة لها مع الشكر العميق .. لمَ لا تطلب الي هذا المطلب ؟ ولعنت حظي الملعون ، وكدت اعرض عليها شراء التذكرة التي تبغيها .. غير ان بقية من الكرامة الجمت لساني . وتحرك الصف .. امامي ثلاثة ..

قصة

والفتاة لا تزال تحوم ، وتدور .. وفجأة صاقبتني ، ولمعت على ثغرها ابتسامة تقطر حلاوة ورقة ، وتخلخلت اعضائي . وقالت : هل يمكن — ايها السيد — ان تتفضل بشراء تذكرة لي لحفلة الساعة الثالثة ؟. وقلت : امرك يا آنسة .

— شكرا .

وجاء دوري ، واشتريت تذاكر لي ، وتذكرة لها ...

وخفت الي قائلة : هل اشتريتها ؟

— نعم .

ورشقتني بنظرة اسكرتني ، وقالت : انت مثال اللطف .

وفتحت محفظتها ، واخرجت نقودها ، وقالت : هذا ثمنها ..

— وهل انا بائع تذاكر ؟.

— العفو .. ولكن .

— ارجو ان تقبليها هدية متواضعة مني .

— انك لطيف . ولكن يجب ان ادفع ثمنها .

— انك تهينينني يا آنسة .

— لا .. لا اقصد .

ومشينا خطوات قليلة ، ثم قلت : الا يمكن ان نجلس قليلا في «الاميركان» لنتناول فنجان شاي ؟.

— لا مانع عندي . وشكرا .

وجلسنا على مائدة منعزلة . وقلت: انني سعيد بمعرفتك يا آنسة ..

— اسمي سيلفانا ..

— اسم رائع .

— وانت ؟.

— محمود ..

ورددت اسمي ، ثم قالت : وهو اسم جميل ايضا .

وتضاحكنا ، ثم قالت : هل انت من القاهرة ؟

— لا .. من دمشق .

— دمشق .. كم اتوق لرؤيتها ؟

— ما عليك الا ان تأمري .

— كيف ؟.

— نسافر اليها ساعة تشائين .

— صحيح ؟.

— صحيح . وزيادة .

وجاء النادل بالشاي وبعض الحلوى. وقدمتها لها، وعيوني تطوف في محياها الوسيم، وتنسكب في عينيها الفاتنتين. ورشفت الشاي. وقضمت قطعة من الحلوى، ثم قالت: الشرق ينبوع السحر. ما اجمل القاهرة.. انني فيها منذ شهر، وكلما احسست بانني سأغادرهـــا اصابني دوار

ـ ولماذا تغادرينها ؟.

ـ جئتها زائرة لخالتي من روما، وسأرجع اليها بعد خمسة عشر يوما.

ـ خسارة.

ـ ما هذه الخسارة ؟

ـ لا يمكن ان تعودي.

ـ كيف.

ـ أمن المعقول ان ندعك تعودين الى روما ؟

ـ ولم لا ؟

ـ نحن في الشرق عندنا حساسية عظيمة للجمال فليس من المعقول ان ندعك تعودين.

ـ وماذا تفعلون بي ؟

ـ لا بد ان تتزوجي في هذا الشرق الذي يعبد الجمال.

واحمر وجهها قليلا، واطرقت حياء، ثم انفضت رأسها الجميل، وقالت:

ـ انك لطيف جدا.

وراحت ترشف الشاي بأناة، ثم سألتني: هل انت متزوج ؟

ـ لا.

ـ عندك خطيبة.

ـ لا.

والقت نظرة خاطفة على ساعتها، ثم قالت: يجب ان اعود الى البيت.

ـ هكذا بسرعة.

ـ سأذهب مع خالتي لنزور بعض اصدقائنا.

ـ كما تحبين.

ـ يبدو لي انك متضايق لذهابي. أهذا صحيح ؟

ـ .. لن اكذب عليك.. صحيح.

ـ لماذا ؟

ـ لا اعلم.. وارى انه يجب ان اقضي معك وقتا كبيرا.

ـ والسبب ؟

ـ اشعر بسعادة عظيمة، وانا اتأمل جمالك العظيم.

ـ وهل انا جميلة حقا.

ـ ملكة الجمال حقا وصدقا.

ـ انت لطيف ومهذب.

وسكتت هنيهات، ثم اردفت: سأذهب الان.. وارجو الا تتضايق من ذهابي.. وغدا سألتقي بك في هذا المكان، في الساعة الثامنة صباحا، وسأقضي معك نهارا كاملا.. أمسرور الان ؟

ـ اذا كان وعدك صادقا.

ـ سأكون هنا صباح الغد.. اياك ان تتأخر.

ومدت لي يدها النضيرة، ودبت بي لذة حالمة، وانا اصافحها.

وتوارت كالطيف وشيعتها بنظرات تومض بالحنين والمحبة.. حتى اذا غابت عن عيني اعتراني ضيق شديد.. ووضح لي أنني لن اراها بعد الان.. وهذه الدقائق التي امضيتها معها لن تعود. واحسرتاه. لقد اشعلت النار في كياني. واحسست برغبة عارمة لامتلاكها. ولكنني سرعان ما تهاديت، وانبت نفسي على هذه الرغبة المحمومة.. ان البراءة التي تنصع في وجهها الطفل تدفع الانسان الى السمو في عالم الروح.. وندت مني زفرة نائحة.. ونهضت من مكاني، وانطلقت على غير هدى في الشوارع اذيب همومي.. وحاولت ان اطردها من مخيلتي، بيد انها كانت أقوى مني، فظلت مترسبة في اعماقي. سحرها ونداوتها.

وتنفس صبح اليوم التالي، وكنت في الساعة السادسة في مقهى الاميركان.. ورحت اتصفح الجريدة.. وانا في لجج عاتية من القلق وتوتر الاعصاب.. هل تصدق في وعدها ؟ وساورتني الهواجس من كل صوب وحدب. وليست هي المرة الاولى التي تضرب لي فتاة ميعادا. لقد عانيت هذه التجربة كثيرا.. ولكنني في حياتي لم احس بمثل هذا التمزق والقلق واللهفة عليها. اريدها.. وابغي سماع حديثها العذب، والاستمتاع بجمالها الغلاب، وهذا السحر العجيب الذي تنفثه.. هل معنى هذا انني احبها ؟ وطردت هذه الفكرة من راسي الموقر.. انني لا اعمل على تمتين صلتي بأية فتاة.. لانني لا احب الزواج، ولا اسيغ فكرة دخولي في قفص ولو كان من ذهب.. غير ان سيلفانا تختلف عن عشرات الفتيات اللواتي عرفتهن في الشرق والغرب.. فيها براءة عجيبة، وطفولة روح، ورقة متناهية، وجمال آسر.. يا رب.. ما هذه الورطة ؟ وكيف سوغت لنفسي ان تقع في شراكها، وقد لا اراها البتة ؟ الانني اشتريت لها تذكرة سينما يجب ان توافيني الى هذا الميعاد ؟ لا بد انها هزات بي ؟.. وتضايقت كثيرا. ولعنت الساعة التي عرفتها بها.. اما كان الاحجى بي ان اظل حرا طليقا كالعصفور الشادي..

ومشت الدقائق ببطء.. وبعد لاي اقتربت العقارب من الثامنة. ان قلبي في وجيب شديد، ورحت اتطلع الى الباب في شوق ولهفة.. ومضت دقائق.. على الميعاد المضروب، وكادت روحي تتمزق.. وفجأة رأيتها امامي بكل ما حباها الله من جمال وسحر. وصافحتها، وقد طفح وجهي بالبشر. وقلت مزهوا: انا اسعد مخلوق يا انسة سيلفانا.

وجلست وهي تتمتم: هل حضرت في ميعادي ؟

ـ شكرا جزيلا.

وطافت عيناي الظامئتان بوجهها الزنبقي المشرب بحمرة الورد.. لقد تراءت لي في جمال الاهة الجمال في القديم.. ورأتني اتأملها بوله، فاحمر وجهها وقالت، اراك تحدق بي كثيرا.

ـ اعذريني.

— هل انا جميلة اليوم ؟
— جميلة اليوم وكل يوم .
— لقد خصصت لك هـذا اليوم كله .
— هذا اليوم فقط ؟
— لا تكن طماعا .
— امرك .
— والان الى اين تريد ان تأخذني؟
— الى المكان الذي تريدينه .
— خذني الى القاهرة القديمة .
— فكرة جميلة .
— هيا بنا .
— الا تتناولين شيئا ؟
— لا استطيع الان .

واقلتنا السيارة الى جامع سيدنا الحسين . وتغلغلنا في الحارات الملتوية ، والازقة المتعرجة القديمة .. وهبت علينا رائحة القاهرة الفاطمية ، فانتشيت من عبقها .. ومالت سيلفانا الي قائلة : انا سعيدة جدا .. اشعر ان روحي تطوف في دنيا عجيبة . اين خان الخليلي ؟

وتسللنا اليه ، ووقفت مبهوتة امام التحف الدقيقة التي اطلت من مخازنه .. وغرقت في تأملها ، وابدت اعجابها الشديد . وقلت : اختاري ما تشائين .
— ليس عندي مال كفاية .
— يسرني ان اقدمها لك هدية .
— ولماذا تقدم على هذا ؟
— لانه يسعدني .

وازاء الحاحي الشديد عليها اشتريت لها بعض التحف التي اعجبتها .. وفي كل مرة تمانع بشدة، ولكنني كنت ماضيا في شراء كل شيء يروق لها حتى كثرت المشتريات عندها .. وقالت :
كفاية . لقد اشتريت لي كثيرا .
— خذي ما طاب لك .
— اخذت فوق حاجتي .

وغادرنا خان الخليلي ، وعطفت علي قائلة : لا بد لنا من عودة الى هذه الجنة .
— نعود غدا .
— لا .. سأقول لك فيما بعد .

ونفذنا الى مقهى الفيشاوي الشهير .. وحدثتها عن تاريخه العريق ، وكيف يقضي الناس سهراتهم في رمضان فيه ، ويشربون الشاي الاخضر .. فاستمرأت حديثي ، وقالت : بلادكم ينبوع السحر والجمال .

وجلسنا في مقصورة خاصة ، ورحنا نشرب الشاي الاخضر ، وهي تتطلع باعجاب الى التماثيل والصواني، والعقود التي ابتعناها ، ثم قالت : انني سعيدة .. لا اعرف كيف اشكرك ..
— وانا سعيد .
— هذا اسعد يوم في حياتي بالقاهرة .

وسكتت قليلا ثم قالت : اشعر بقربك بطمأنينة عجيبة، كأنني اعرفك منذ اجيال ..
— قد تكون روحانا عاشتا معا في الماضي .. ثم التقينا ، الان ..
— هل تؤمن بالتقمص ؟
— بعض الايمان .
— الايمان لا يتجزأ ..

وامسكت تمثالا صغيرا لاحد الفراعنة ، وقبلته بيديها ، وقالت : انه يذكرني بالماضي ..

وارجعته الى مكانه في الحقيبة الكبيرة التي ابتعناها ، ثم قالت فجأة: يجب ان اكافئك .
— لقد كافأتيني بما فيه الكفاية .
— لم ار انسانا مثلك يقنع بالقليل.

وامسكت بيدي ، وراحت تربت عليها بلطف ، وهمست: لماذا لا تقبلني؟

وتطلعت اليها في ذهول .. ثم اطرقت برأسي ..
وقلت : لا ..
وقالت بدلال : الا اعجبك ؟ ألست جميلة ؟
— انني معجب بجمالك الى ابعد حد ..
— لماذا لا تقبلني اذن ؟
— لانني اقدسك ..
— هل تحبني ؟
— دعينا من هذا السؤال ..
— ان الحب الصحيح لا يتكلم .

ووافى المساء ، ونحن نطوف ارجاء القاهرة القديمة .. وقلت لها اخيرا : الا نعود ؟
— الى اين .
— الى القاهرة الجديدة .
— هيا بنا .

ودرجت بنا السيارة الى شارع « ٢٦ يوليو » وقلت لها :
اين تسكن خالتك ؟
— في الزمالك .
— سنواصل السير ..
— لا . يجب ان نهبط هنا .
— كما تريدين .

وتأبطت ذراعي ، وتهادينا في الشارع المزدحم ، ثم قالت :
انك تنوء بحمل هذه التحف .. الا يمكن ان تضعها امانة في مكان ما ؟
— ممكن جدا .

وبعد ان وضعتها عند احد اصدقائي ، قلت لها : ماذا نفعل ؟
— اترك الامر لك ؟
— هل نذهب الى السينما ؟
— لا .
هل نجلس في احد المقاهي .
— لا .
— ماذا تريدين اذن ؟

وسكبت نظراتها الصافية في عيني ، وانفرجت شفتاها عن ابتسامة انيقة ، وقالت : كيف تتزوجون عندكم ؟
— نذهب الى المأذون ، ونسجل زواجنا .
— واين هذا المأذون ؟
— وماذا تريدين منه ؟
— يجب ان احدثك بصراحة . لقد اعجبت بك امس ، واحببتك اليوم. واريد ان اتزوجك.. ما رأيك؟

ونبض قلبي بالفرح ، وكدت افتح ذراعي لاضمها الى صدري .. والواقع ان قدري ساقني اليها ، ففي حياتي لم يخفق قلبي كما يخفق

(التتمة في صفحة ٦٤)

طرطوس — محمد حاج حسين

ســاد بــالامس قــفــر

ترجمـة سـعد صائب

•

« ساد بالامس قفر » مجموعة شعرية معدة للطبع ، تضم ديوان شـعر اصدره الشاعر الفرنسي المعاصر ايف بونفوا وسيقـدم له بكلمة يخص بها القـارىء العربي .

* * *

نقصــان الكمال هو القمة

كان الامر انه لا بد من الهدم والهدم والهدم
كان الامر ان الخلاص انمـا يكون بهذا الثمن .
هـدم الوجه العـاري الذي يبرز في الرخـام
تحطيم كل شكل وكل جمـال .
محبـة الكمـال لانه هو العتبة
ثم رفضه فـور التعرف عليـه ، ونسيانه ميتـا
ان نقصان الكمال هو القمة ..

الجمـــال

ان الجمـال الذي يدمّر الكـائن
سـوف يعذب عقـابا ويطرح عنه العذاب
ويهتك عنه الستر ، ويوصم بالجريمة ، فهو دم
وصراخ وظلام قد انتزعت منه كل فرحة
فيـا ممزقا على كل الابـواب قبل الفجر
يـا من تطاه وتجوزه فـوق كل درب
اقصى يأسـنا سيكون في ان تعيش
وقلبنـا في ان تتألـم
وصوتنا في اذلالك وسط دموعك ووهمك
بانك كاذبك ، وانك قهرمان السماء السوداء
ومع ذلك فان لذتنـا هي جسـدك السقيم
واشـفاقنا ، هذا القلب الذي يقود الى كل طين !.

الرُصَّـــاد

كان في اقصى الحديقة دهليز
وحلمت اني كنت اسير فيه
وان الموت كان يجيء بازاهيره العالية الذابلة
وحلمت اني كنت انتزع منه هذه الطاقة السوداء .
كان في غرفتي رف
وكنت ادخل مساء فارى امرأتين ممسوختين
تصرخان واقفتين على الخشب المطلى بالسواد .

كان ثمة سلّم ، وكنت احلم
ان كلبا يعوي في قلب الليل
في هذا المدى الذي لا تؤمه الكلاب
وكنت ارى كلبا ابيض فظيما يخرج من الظل

كنت انتظر وانا وجل ، كنت انتظر الموت
قـد ينفتح في النهاية باب
« هكذا كان الصباح احيانا يبقى موقدا في وضح النهار
ولم احبب قط الا هذا الشاطىء » .
اكان هو الموت ، الذي يحكي مرفأ رحبا فارغا ، واني لاعلم
ان الماضي والمستقبل في عينيه الحريصتين
سيظلان يهدم احدهما الاخر
كرملة وبحر على الشاطىء
وانني ساشيد فيه مع ذلك
المكان الحزين للاغنية التي كنت احملها
كالظل والطين ، واكـوّن منها
صور الغياب حين يجيء الماء فيمحو مرارة الشواطىء ..

الوجه الفـاني

ينحني النهـار فوق نهر المـاضي
محاولا ان يستعيد الاسلحة التي فقدت باكرا
وجواهر الموت الطفولي العميق .

انه لا يجرؤ ان يعرف هل هو النهار حقا
او هل يحق له ان يحب كلمة الفجر هذه
التي ثقبت من اجله سـور النهـار .

حمل مشعل في النهار الاغبر
النـار تمـزّق النهـار
الامر هو ان شفافية اللهب تنكر النهـار بمرارة .

الامر هو ان الصباح كان يشتعل في خفوت
وانه كان يحني نحوك وجهه الاربد
وانه كان يرتجف في فضا ءالشجر كعصفور جريح محمل بالموت .

اترى الزيت السائل في مرافىء البحر الرمادي
يلتهب بعد بالحمرة يوما اخيرا
والسفينة السالكة في قلق الشواطىء
اتراها تلج اخيرا قـاعة النهـار ؟
ههنـا الحجر وحيـد ، روحه واسعة كئيبة
وسرت انت دون ان يجيء النهـار ..

دمشـق

سـعد صائب



نقـولا يوسف

الكسندره افرينو صاحبة انيس الجليس

بقـلم نقـولا يـوسف

* * *

يعبق جو الاسكندرية البلوري بذكريات شعرائها ومفكريها ممن استلهموا بحرها وبرها وجوها ، وما زالوا يتوارثون هذه الالهامات منذ ايام كاليماخوس وثيوقريطس وكليوبتره وهيباتيا ..

وكان هناك في مر الاجيال شروق وغروب .. وعادت بشائر الفجر الجديد تطلع على هذا الشاطىء في الربع الاخير من القرن التاسع عشر .. فوضح تفاعل الثقافات الواردة من وراء البحر مع البذور العريقة هنا في القدم .. وولدت شعارات جديدة تقول بحرية الشعوب ، وحرية المراة ، وحرية العقل .. وهاجرت ثقافات عربية من ارض الشام هاربة من مساوىء الحكم التركي ، ثائرة على القيود والمظالم .. ولقيت هنـاك خمائر من تعاليم رفاعـة الطهطاوي ، وعبد الله النديم ، والافغاني ، ومحمد عبده ، وقاسم امين .. وتلتها خمائر اخرى خلفتها الثورة العرابية وضرب الاسكندرية .. وظل جو المدينة مشحونا بالكهرباء ليصعق « راس التين » قبل عشر سنين !..

كانت مواكب اولئك الادباء المهاجرين ، المتمردين على الرجعية التركية ، تتالى وتستقر بالاسكندرية ، ثم تنصهر في بوتقتها .. وكانت بينهم طائفة من ذوي المواهب الفكرية ، سرعان ما وجدنا ها هنا جوا للانطلاق والازدهار . فجاء في طفولتهما : الشاعران الكاتبان الشيخ نجيب الحداد ، وشقيقه امين الحداد مع ابيهما الشاعر سليمان الحداد وامهما بنت ناصيف اليازجي .. وجاء سليم وبشاره تقلا ليؤسسا بالاسكندرية جريدة « الاهرام » عام ١٨٧٥ .. وجاء آل شميل وانشأوا بها « البصير » عام ١٨٩٧ .. واقبل خليل مطران ، واديب اسحق ، وسليم النقاش ، وورده اليازجي ، وعبده بدران ، وايليا ابوماضي ، وابراهيم اليازجي ، وخليل زينية ، وطانيوس عبده .. وكفايات اخرى .. في حين كانت الاسكندرية تلد بين عام واخر من تلك الفترة الخصيبة : عبد الله النديم ، وسلامه حجازي ، وعبد الحي حلمي ، وجورج طنوس ، وسيد درويش ، وبيرم التونسي ، ومحمود سعيد ... الى اخر هذا العقد الفريد ..

وفي تلك الفترة ايضا ، قدمت الى الاسكندرية ــ في العاشرة من عمرها ــ الشاعرة العربية الحسناء: «اسكندرة» ــ ابنة قسطنطين نعوم خوري ــ وكانت قد ولدت ببيروت حوالى سنة ١٨٧٠ ــ واشتهرت فيما بعد بهذا الاسم واللقب : « الاميرة الكسندرة دي افيرينوه فيزينوسكا » ! ولا زال بعض المعمرين الذين ادركوها في خريف حياتها يتحدثون عنها كأسطورة من بنات الخيال !..

جاءت مع اسرتها اللبنانية ، وتعلمت منذ صباها الباكر بمدارس الاسكندرية .. ودرست آداب اللغات العربيـة والفرنسية والايطالية ، وتعلقت بالشعر والشعراء وكانت تنظم في هذه اللغات .. واصبحت سكندرية النشأة والموطن والخواص .. ثم تزوجت من احد اعيان المدينة ـ السيد « ملتيادي افيرينوه » .. واضافت اسمه الى اسمها ..

وفي صالونها الادبي كان يجتمع صفوة الادباء ، المقيمين منهم والزائرين .. وساعد على اشتهار هذا المنتدى ما كانت عليه « الكسندره » من ثقافة عالية ، وجمال باهر ، والمام باللغات ، ورئاستها لتحرير مجلة ادبية ..

وكأنما كان صالون « الكسندره » بالاسكندرية تمهيدا لصالون مي زياده ، العتيد بالقاهرة !..

وكان من رواد صالون « الكسندره » ، كما كان فيما بعد من رواد صالون « مي » ، الشاعر الرقيق النظم والخلق اسماعيل صبري ..

ولهذا الشاعر صلة وثيقة بالاسكندرية حيث قضى من سني وظائفه اكثر من عشـرة اعوام .. فكان محافظـا للاسكندرية فيما بين مارس ١٨٩٦ ونوفمبر ١٨٩٩ ، وكان من قبل رئيسا لمحكمتها الاهلية فيما بين ١٨٨٦ ــ ١٨٩١ ، ومن قبل ايضا مساعدا بمحكمتها الابتدائيـة المختلطة عام ١٨٨٠ ..

وقد الهم منتدى « الكسندره » ومجلتها : « انيـس الجليس » ، وجمالها وثقافتها ــ شاعرنا الرقيق ، عددا

من القصائد ــ ما زلنا نقرأ أربعا منها متوجة باسمها في ديوانه المطبوع عام ١٩٣٨ ..

وها هو يصف ندوتها بقوله :

ان للفضل رونقا وجمالا   بهرا الحاضرين في ناديك !
قد تفردت في الانام براي   غض من صوت معشر جادلوك !

وعن اشعارها يقول :

انظمي الدر يا سمية اسكنـ   ـدر لا فض عقده من فيك
وانثريه فالدر در وان لم   يدخره تجاره من سلوك !

فاذا غاب عن صالونها هذا بعث اليها بهذه الابيات :

بالله يمم يا نسيم الصبا   بمصر عني دار « اسكندره » !
وحيها بين المها ان بدت   في سربها مقبلة مدبره !

ويرسل اليها مرة اخرى قصيدة عاطفية ، منها :

يا ربة الفضل، يا فخر النساء وهل   ترضين ان قلت: بل يا طلعةالقمر؟
يا ام اسكندر بل يا سميته   تيهي على دولة الاقلام وافتخري
هلا نظمت لنا شيئا نقر به   من ذلك الشعر بل من تلكم الدرر
هلا كتبت لارباب النهى جملا   تسير كالمثل الساري مدى الدهر؟
فالقوم ان مست او ارسلت قافية   كل له وطر ناهيك من وطر
هل البدائع الا ما جلوت لنا   من نفثة السحر او من نفثةالسحر!

ويبدو ان سحر « الكسندره » لم يكن مقصورا على « امراء الشعر » فحسب ، بل اصاب ايضا امراء القصور وسلاطينها .. وكانت للجميع «اميرة الاحلام» !

ففي عام ١٩٠٠ سافرت شاعرتنا الى باريس حيث اجتمع مؤتمر نسائي « لجمعية السلام العام » . وانتدبت « الكسندره » لتمثل سيدات مصر هناك . فصنعت لمصر علما خاصا يرمز الى السلام ، ليخفق بين رايات سائر الدول . وكانت رئيسة تلك الجمعية هي الاميرة الابطالية « فيزنيوسكا » . فتعرفت « الكسندره » اليها فما لبثت ان صارت صديقتها وموضع ثقتها . ولم يكن لهذه الاميرة اولاد يرثون عنها لقبها . فأعلنت في وصيتها الاخيرة عن رغبتها في ان ينتقل لقبها بعد وفاتها الى السيدة الكسندره وذريتها من بعدها ..

وبذلك لقبت الشاعرة « اسكندره نعوم خوري » : بالاميرة الكسندره دي افرينو فيزنيوسكا .

وساعد لقب « الامارة » هذا في عصر يقدس الالقاب والرتب ــ على رواج مجلة « انيس الجليس » التي كانت تصدرها الكسندره ، واجتذبت اليها الاقلام والقراء .. وغزت قصور الملوك والسلاطين واهل الامارة والوزارة . وفي عام ١٩٠١ منحها مظفر الدين شاه ايران، لقب «كوكب الشرق» . وانشأ لاجلها وساما خاصا بالنساء اهداه اليها مع صورته موقعة بخطه !

ولما سافرت الكسندره في شهر يوليه ١٩٠٣ الى استنبول ، لتشهد « حفلة السلاملك الهمايوني » ، بادر السلطان عبد الحميد الى الانعام عليها « بوسام الشفقة من الدرجة الاولى » ، مرصعا بالجواهر والماس !

وكانت الكسندره قد انشأت مجلة باسم « اللوتس » ، الزهرة المصرية المعروفة ، اصدرتها باللغة الفرنسية ، لتكون همزة الوصل بين الادباء العرب والفرنج .. فذاعت في الخارج واثنت عليها الصحف الاوروبية الكبرى ..

ثم ما لبثت ان انشأت بالاسكندرية مجلة عربية سمتها: « انيس الجليس » ــ ادبية اجتماعية نسوية ــ كانت تظهر في اخر كل شهر ــ وكان للشعر والشعراء بها مجال فسيح .. وصدر عددها الاول في ٣١ يناير ١٨٩٨ .. وظلت توالي اصدارها والكتابة فيها حتى اوقفت صدورها بعد اخر عدد صدر منها في ٣١ ديسمبر ١٩٠٤ ..

وكان لتوقفها في ذلك العام رنة اسى في قلوب اصدقائها . وارسل اسماعيل صبري الى صاحبتهاقصيدة يرغب اليها في ان تعيد « انيس الجليس » الى الصدور ومطلعها :

خبري القوم يا سمية اسكنـ   ـدر يا ربة النهى والذكاء
هل لوجه « الانيس » بعداحتجاب   من سفور في عالم الادباء ؟
فنرى فيه كل بحث جديد   يقف الحق في صفوف النساء
ان للغانيات حقا علينا   ليس يخفى الا على الجهلاء
فاجمعي جيشهن حولك ان شئـ   ـن طلاب الحقوق حول لواء
وابعثي من ضياء فكرك في النا   س سفيرا مسدد الآراء

والى جانب ما كانت تكتبه وتنظمه الكسندره فيمجلتها من مقالات واشعار ، فقد كانت ترحب بكلمات الادباء وقصائد الشعراء . وتدفع للفقير منهم في سخاء .

واليوم وقد مضى على هذه المجلة نحو ستين عاما ، وانطوت في سجل الزمان ، فقد امست مرجعا لمن شاء من النقاد الباحثين ، النبش عن كثير من الآثار القلمية المنسية والمحتجبة عن الانظار .

وكان ممن اسهموا في تحرير هذه المجلة الاديبان الشاعران : الشيخ نجيب الحداد ، وشقيقه الاصغر الشيخ امين الحداد .. ولم يكتب الاول الا في اعداد السنة الاولى ، فهو لم يعمر طويلا ومات في الثانية والثلاثين يوم ٩ فبراير ١٨٩٩ . واما امين الحداد فظل يحرر بها الى النهاية . كما ظل وفيا لصاحبتها حتى وفاته عام ١٩١٢

ولم يكن قلم الحدادين مقصورا على هذه المجلة الشهرية الادبية ، التي اخلصا لها ولصاحبتها الاخلاص كله .. فقد كانا يكتبان في صحف اخرى وانشأا جريدة يومية تسمى « لسان العرب » ثم اخرى تسمى « السلام » . كما ترك الشيخ نجيب الحداد نحو ثلاثين قصة وتمثيلية ، ما بين مترجمة ومؤلفة ، ولا زلنا نذكر الحان الشيخ سلامه حجازي في تمثيلياته وبخاصة « صلاح الدين الايوبي » و « روميو وجولييت » .. وغيرهما ..

فاذا وقع في يدك مثلا ــ عدد نوفمبر ١٩٠٢ من « انيس الجليس » ، صادفتك مقالة طريفة في نقد ديوان احمد الكاشف بقلم احمد زكي (باشا) يبدأها بتحية الشعر وشعراء العصر ــ ويقول :

« للشعر الان في مصر ابتسامة جميلة ، تبشر بحياة عالية صافية ، ومستقبل منير سعيد . وهو تابع في

نموه لخطى الشعب في طريق المدنية والعمران . بل هو ثمرة الحرية التي وجدت فيه استعدادا للانتفاع بهـا ، والاستفادة منها فاشتدت العزائم ، وتطلعت النفوس الى الكماليات ... »

.. وبعد ان حيى شوقي وحافظ واحمد محرم واحمد الكاشف ، قال في الكاشف :

« هو اول من عاب بدء الاماديح بالغزل الفاضح المخجل، وظن بعضهم ان ذلك عجز منه ، ولكنه لما خـاض في ذكر الحب والجمال في باب خاص بهما ، رجع لائموه عـن ظنهم ، واقتدى به اخوانه وسلكوا مسلكه .. »

او قلبت عدد يناير ١٩٠٣ ، صادفت ابياتا من الغـزل للشاعر احمد محرم ، واقصوصة لفيلكس فارس ، وتعريفا بقصة « متاعب الهوى » لصالح افندي جودت « المترجم بالنيابة العامة » ...

ومن عجيب امر هذه المجلة ان تنشر قصيدة المنفلوطي في اوائل ١٨٩٨ والتي حكم عليه من اجلها بالسجن سنة، وغرم ثلاثين جنيها ، اذ هجا فيها الخديو عباس حلمي ، يوم عودته من رحلته بأوروبا في ٣ نوفمبر ١٨٩٧ ومطلعها:

قدوم ولكن لا اقول سعيد ... وملك وان طال المدى سيبيد
رحلت ووجه الناس بالبشر باسم ... وعدت وحزن في القلوب شديد

وكانت الحكومة الخديوية اغلقت جريدة « الصاعقة » التي نشرت هذه القصيدة قبلها .وقبض على صاحبها .. ويبدو ان صاحبة « انيس الجليس » كان لها من الحصانة ما يحمي تلك الآراء التجديدية والثورية التي كانت تنشرها سواء عن الاستعمار ام عن تحرير المرأة ام عن غيرهمـا ، وبخاصة قلم نجيب الحداد الكاتب الثائر ..

ثم يقول امين الحداد في مذكراته المكتوبة عام ١٩٠٤ والمنشورة في الكتاب الصادر بعد وفاته بعنـوان : « منتخبات امين الحداد » ـ بالاسكندرية عام ١٩١٣ ؛ وذلك عن صلته بهذه المجلة ـ النبذة التالية :

« انا الان في نحـو السابعة والثلاثين مـن عمري . وصناعتي الانشاء والتحرير في جريدة « البصير » ومجلة « انيس الجليس » . ولكن اكتب في كلتيهما بدون توقيع. وانني شاعر ايضا . والشاعر ضنين بمجـده ، مفتون بكلامه . ولكني مع كل هذا اتعمد ذلك الخلق بالتساهل . فلا اوقع على نظمي بل اهبه لسواي كثيرا . ولو كان جيدا اشرف به . وانما افعل هذا في مجلة « انيس الجليس » خاصة ، لان صاحبتها هي « الكسندره افرينو » ـ وهي امرأة بارعة الجمال . ولكن ليس لجمالها سلطان علـى بالاطلاق . بل اهبها ذلك في نظير ما تهبه من اجرة . وفي نظير ما ينبغي من الرجل للمراة . اما دل سلطانها لدي ، فلشدة ائتلافي بها الى حد الاخوة . ولكوني فـي شغل شاغل عن الحسن من خلقي ومن همومي ، ونيلي في دنياي اقل من استحقاقي .. »

ويفهم من هذا الاعتراف ان بمجلة « انيس الجليس » شعرا لامين الحداد لم يوقعه باسمه . وللناقد ان يميز هذا الشعر ويفحصه اذا شاء معالجة هذه الموضوعات ..

ويعلق صديقه ـ « حنا سركيس » في المقدمة التـي كتبها « لمنتخبات امين الحداد » عن تلك العبارة بقوله :

« .. فقد ذكر عند كلامه عن « انيس الجليس » انه كان يكتب في نظير الاجرة التي كان يتناولها . وهو قول ـ وان كان صحيحا ـ ولكن الاصح منه ان وفاءه الشديد لصاحبة الانيس ، وبقاءه في خدمتها الى اخر ايامه ، انما كان من قبيل الاعتراف بالجميل الذي صنعته مع اخيه نجيب الحداد ايام اعتلاله وموته .. » (١)

كانت هذه احدى النواحي الانسانية في حياة الشاعرة الكسندره ـ اذ كانت مع ترحيبها بنشر انتاج الادبـاء ، تدفع الاجر لرقيقي الحال منهم ، ولما مرض نجيب الحداد رعته بعنايتها ، فلما انتقل الى رحمة ربه جمعت شعره ، وطبعت ديوانه « تذكار الصبا » على نفقتها ، وكتبت في تقدمتها له ان هذا الديوان لم يشمل شعره كله . اذ ان ثلاثة ارباع شعره متفرق في رواياته ومسرحياته وطبـع معها .. وكان هناك شعر كثير يحتفظ به اصدقاء الشاعر، ولم يحتفظ به هو ، فالتمست منهم هذا الشعر بألسنة الجرائد والرسائل ، فجاءها منه شيء وبقيت اشياء ..

كما طبعت الكسندره ايضا على نفقتها ديوان : « شعر النحلة » لناظمه الدكتور لويس صابونجي ..

اما آثارها الخاصة فتشمل اشعارها العربية والفرنسية التي نشرتها في مجلتها : « اللوتس » و «انيس الجليس». ومقالاتها فيهما وفي غيرهما .. كما انها ترجمت الـى العربية رواية « شقاء الامهات » .. ولم نعثر على كتاب يجمع سيرتها واخبارها واشعارها في سمط واحـد طريف ..

وان حياة هذه الشاعرة العربية ، السكندرية الحسناء الكسندره التي عاشت في اوائل القرن العشرين ، بيـن اهل الادب والفن ، مصدرا لالهام الشعراء ، لتذكر بمواطنتها السكندرية الفيلسوفة الحسناء هيباتيا التي عاشت في القرن الميلادي الثالث بين اهـل العلوم والفلسفات .. وكانت كل منهما في هذه المدينة نجما لامعا قبل ان تخلق نجوم السينما فتبعد الابصار ببريقها عما سواها !

الاسكندرية **نقولا يوسف**

---

(١) انظر « ديوان اسماعيل صبري » ط القاهرة ١٩٣٨ ص ٥٠ و ٧٣ و ٧٤ و ١٢١ ـ و « تاريخ الصحافة العربية لفيليب دي طرازي » ج ٤ ص ٣٢٦ ـ و « منتخبات امين الحداد » ط ـ ١٩١٣ ـ وديوان « تذكار الصبا » لنجيب الحداد .. واعداد مجلة « انيس الجليس » ١٨٩٨ ـ ١٩٠٤ ـ وكتاب « الشيخ نجيب الحداد » لعادل الغضبان ١٩٥٣

من مجامر الصخور

« مجامر الصخور » كتاب معد للطبع يضم مختارات كتبت بين ١٩٤٦ ـ ١٩٥٢

بقلم ثريا ملحس

من يكون ؟
من يكون ذلك الانسان ؟
حاجباه كثيفان ، شعره ينوس على جبينه ، واوتاره تحرث الطبيعة ، وتفور منها الإلحان ..
انغامه حزينة ، كئيبة ، هو من قلب الآلام يصعّد الانغام، على وجهه قناع، قناع الموت ..
ما اقسى الموت ! حين يضم جبابرة الخلود بين ذراعيه .
نور يعلو ويهبط ،
يبحث عن ثقوب العيون ،
يبحث عن القيثار ، عن البيانو ، عن الكمنجة ..
هو كالسفينة في بحر هادىء ،
طالما غرد مع الطبيعة ،
وبكى مع العشاق المخلصين
بيتهوفن خلد اصوات الآلهة
واثار النبعات في قلبي الكئيب
اراه من بعيد .. بعيد ،
مقنعا ، غائبا عن الوجود
لو كنت صيادا ماهرا، لرميت شباكي في الفضاء ،
الملم الحان بيتهوفن ، واجرجرها الى برجي
لو كنت .. ايه .. يا نفسي ، هو مدفون في تلك الغيمة ، فلتتفجر الغيوم والحياة كالنبع ، لا ترى الا اذا قفزت من بطن الصخور ،
والفنانون قفزوا بحرف او وتر او لون او ازميل ،
فكانوا هم الحياة الحية والنبع الفياض

*

... من الافق ، صعد بخار اصفر ، جلل السماء ،
وعلى خط الافق تلال ، ودوائر تسعى،
عيون وانوف وافواه مستديرة ، خرجت عن المعتاد في التنسيق الالهي
ارض الجن هناك ،
اغناما ترعى اعشابا حمراء ،
نهر يشق التلال ، ويربض عند قدم الوديان ، لا يتحرك الى بعيد ، يدور على ذاته ، كما تدور السواقي

هناك ... رأيت البشر ،
رأيتهم وانا في « استيجما » نفسة ،
وصدري يغلي قلقا ونفورا
آويت الى كهف ، حسبتني وحدي
عرفت الكهف ، فاذا فنانون ، هللوا بقدومي
قلت : من انا ؟ ومن انتم ؟
قالوا : ما حدث لك ، حدث لنا
قلت : هل تسمعو نحكايتي ؟
قالوا : علمنا قبل ان تعلمي
ادخلي ، انت من اهل الكهف
كنا اجيالا منتظرين



يرون ما ارى ، يفهمون ما اقول .
فاغلقت الباب ورائي ومشيت

*

... جلست تحت شجرة الصفصاف،
اسند راسي على جذعها الكهل ، بعد ان براني الونى
لحاها متجعد بأطياف الزمن
اغصانها متكسرة من السجود ، تصلي للاستسقاء
وخالقها مشغول عنها ، يسقي الورود الناعمة ،
لكن الورود الزاهية تسحر الباب الشباب ، فيجزونها ، وتبيت على انصدور ، ثم تذوي ، وتسير الى العدم
اين جمالها ؟ اين طيبها ؟
والغصون تلف كنا ، فيه عصفوران ،
يرتلان ذكرى الحرية ، ثم يطيران سويا ، طلبا للحياة
اين هما ؟ اين الحياة ؟
انحنيت على الصفصاف كي استريح
سمعت نبضات حثيثة ، اسندت راسي واذني، فتعالت الدقات السريعة
أانت يا الهي كامن في جذع هذا الكهل ؟
لم ادر انك تحيا في الموت ، وتحن الى القبيح
هبطت الى تلك الشجرة ، فأسريت الحياة، انها تبدو خضراء، انها جميلة شابة
كيف ؟ ومتى ؟ واين ؟
ظننتها حطبا جامدا ، فاذا هي حياة
ظننتك لا تقترب مني يا الهي ،
فاذا انت معي ، في وحدتي ، في هيكلي
خذ قلبي من صدري وادفنه في ذلك الجذع
ادفنه الهي ، انا التضحية ، انا المحبة ،
اظهر في الجميل وفي القبيح ، في الحياة وفي الموت ،
اما الفرق بيني وبينك هو انني على الارض في صورة انسان ،
وانت في كل الفضاء في صورة الاكوان

الناعورة

●

كرّت تدور بربقة الاسر ... لتصيب غمرا فاض عن غمر
غسّت بقعر الماء راتعة ... كالحوت حين يغسُّ بالقعر
وتغوص في الأعماق ناخبة ... بطن الثرى بالبحث والسبر
فكأنها الغواص تجذبه ... للقاع أطماع الى الدر
دارت فخال الناس حين جرت ... أن القضاء بجنحها يجري
هي لولب القدر المحيق وهل ... ليد مع الاقدار من أمر
تسعى ولم يك سعيها لاذى ... او كان للافساد والشر
وتثيب بالكيل الذي استلفت ... كيلين في يسر وفي عسر

* * *

جثمت بكلكل مجهد دنف ... رزحت به الاقدام من وقر
القت عصاها حين اجهدها ... طول السُرى جريا مع الدهر
رُكزت على نصب مشيدة ... نُصّبت لها كقوادم النسر
درجت مع الايام من قدم ... في شاسع تلهو مع العمر
تستعرض الماضي وروعته ... فتميل بالاعطاف من كبر
شهدت وغصن الدهر نفح شذا ... ملكا شديد البأس والاسر
وجحافل الاحرار ناشرة ... راياتها في السهل والوعر
ما عَبئت الا لكسب وغى ... أو سُيّرت الا الى نصر

* * *

قد حُمّلت وقرا وما برمت ... بجليل ما شالته من وقر
حقَب بغمر الماء مترعة ... شُدّت بأوساق على الظهر
تهوي خفافا في مساربها ... بجناح نسر طار عن وكر
وتعود تجري وهي مثقلة ... احمالها بالجذل من وفر
تُعطي بلا مَنٍّ ولا كدر ... ان ضن بعض الناس بالنزر
في سيبها الارزاق سائلة ... ما بين حمد الناس والشكر
وكأنها الافلاك في قدر ... لا تأتلي في فلكها تجري

* * *

قامت تبث النهر معولة ... ما ضمّت الاضلاع من سر
سِيَرٌ تغصُ بها جوانحها ... من لوعة لا تأتلي تفري
تروي عن الماضين ما سطرت ... أسيافهم من غزوة بكر
وتهيب بالوادي وجيرته ... ليخف ذو حزم الى أمر
هتفت مذكرة ومنذرة ... أهل الحمى بالمدمع الحر
فاذا الحمى غاف وجيرته ... من غفوة كمعاقر الخمر
والنهر آذان تصيح لها ... بشجون والهة على قبر

دمشق

عدنان مردم بك

اميرة .. وجميل

قصة من بغداد القديمة

الكاتب الانجليزي كامبل

ترجمة مبارك ابراهيم

فتى من شباب الفتيان اسمه جميل كان يعيش في بغداد او قل في «دار السلام» ايام الخليفة «هارون الرشيد». وكان ابوه تاجرا يبيع الثياب في سوق بغداد. وكان مؤمنا بالله حق ايمانه ..

وادركت المنية اباه بعد حين فأصبح «جميل» واحدا من أغنى اغنياء التجار في المدينة فقد ورثه ابوه متجره المليء بالثياب الغالية كما ورثه من المال ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبية اولى القوة ..

وبكى «جميل» حولا كاملا. ونقل رفاته من بغداد الى «النجف الاشرف» ثم عاد ليدير المتجر الذي خلفه والده ..

وكان من عادة الفتى ان يركب قاربا كل ليلة فينزل في جزيرة من الجزر. وهناك يأكل السمك المشوي ويشرب النبيذ ..

وفي ذات مساء حانت منه التفاتة — وهو في قاربه — الى نافذة بيت من البيوت يتوسط حديقة تقع على ضفة النهر فرأى فتاة تطل فجن جنونه ذلك لان الفتاة كانت تمثل الحسن اجمعه. وشغف الفتى حبا بتلك الفتاة. وعاد الى بيته من فوره ولم يذهب ليلتئذ الى الجزيرة كعادته ودعا بامرأة ذات عقل وحجى. وللسر عندها موضع لا يناله صديق ولايفضي اليه شراب. وقال لها: ادعوك ان تذهبي الى شارع كذا ثم الى البيت الذي يتوسط حديقة حافلة بشجر الرمان. وهناك تحدثي الى الخدم النساء واعرفي منهن كل ما يستطاع معرفته عن تلك الحسناء التي تقيم في ذلك البيت ثم عودي وقد وعيت كل اخبارها ..

وصدعت المراة بما صدعت وعادت في صبيحة اليوم التالي وقالت: ان اميرة هو اسم تلك الفتاة التي تشبه البدر في حسنه وملاحته. وهي ابنة رجل فقير كان يعمل حلاقا. وهو فارسي من مدينة شيراز وقد كانت طفلة يوم جاء بها من بلده ..

وكان «جميل» في صمم عن حديث المراة. ذلك لانه كان يفكر في امور اخرى. وما عتم ان قال: وهل «اميرة» متزوجة؟ قالت المراة: بل هي عذراء.

قال: وهل لها ابن عم او ابن خال او احد ممن يجوز لهم ان يتزوجوها؟

قالت: ان هناك عقبات تقوم في طريق زواج الفتاة. ثم استطردت تقول: ولست اخفي عنك انها جاءت الى هذه المدينة فتاة فقيرة. ومات ابوها ولم يورثها مالا. وهي اليوم — على الرغم من ذلك — من ذوات الغنى والثراء. بل ان ثراها قد فاق كل ثراء. بل قل انها اكثر منك مالا.

فدهش «جميل» وقال: انك تقولين انها فقيرة وانها عذراء. فمن اين اذا جاءها ذلك الغنى والثراء؟

قالت: لقد قلت لك انها عذراء وقد اكد لي تعمقي في البحث عن صحة هذا القول ذلك لان خدمها وجواريها قد اقسموا بحق عيونهم ان احدا من الرجال لم تلمس يده يدها. وهي الى ذلك قد جاءها الغنى عن طريق حسنها وجمالها.



فهي اجمل فتاة في «دار السلام». واعرف — عرفت الخير — ان كل غني في البلد وكل سري من السراة لا يضنون بأكياس من الذهب في سبيل نظرة يستمتعون بها ..

وهذه الفتاة تسمح لك بنظرة الى وجهها لقاء خمسين درهم. وتسمح لك بنظرة الى نصفها الاعلى ملففا في الدمقس وفي الحرير لقاء مائة درهم. وتسمح لك بنظرة الى جسمها كله وهو في اغلى الحلل لقاء مائتي درهم. وتسمح لك بنظرة الى نصف جسمها الاعلى عاريا لقاء خمسماية درهم. والى جسمها كله في اتم ملاحته وهو في الغلائل الغالية لقاء الف درهم تؤدى قبل الرؤية.

ولكن لن يتم لك شيء من ذلك كله الا وقد جعلت الفتاة بينك وبينها سدا من الحديد لا تستطيع انت ان تظهره ولا تستطيع له نقبا ..

سمع الفتى هذا القول فجافاه النوم وظل في سريره حائرا مسهدا وهو يسائل نفسه: كيف السبيل الى الظفر بتلك الفتاة والتزوج منها بشرط ان اخفي عن معارفي واصحابي انني قد تزوجت فتاة كانت تعرض ملاحة وجهها على كل من يدفعه الاشتهاء الى الاستمتاع بالنظر الى تلك الملاحة. ولكن الطرق كلها قد عميت عليه ..

وعند الصباح اشتدت به الرغبة لان يمتع ناظريه بتلك التي هام بها قلبه ونهض من فراشه وذهب الى السوق وتوجه الى دكان رجل برع في تنكير الوجوه والازياء. ذلك لان الفتى كان يرى انه ما دام في نيته ان يتزوج تلك الفتاة فانها سوف يتولاها يومئذ الخجل اذا عرفت انه كان يعرف وسيلتها الى جمع المال. وخرج من دكان الرجل وهو في زي امين من الامناء الترك وقد وضع على وجهه لحية مستعارة من صوف الغنم. وذهب الى بيت «صاحبته» ودق باب الفناء ففتح له الباب خصي من الخصيان ضخم الجثة. وفي يده

سيف . ووراءه عشرة من الخصيان . وكلهم من الوزن الثقيل . وكلهم مسلحون بالسيوف . وجاءت في اثرهم عجوز ووقفت قبالته فقال لها « جميل » : اريد ان ارى سيدتك الحسناء اميرة . فأجابته المراة : في اية هيئة من هيئاتها تريد ان ترى سيدتي ؟ أتريد ان ترى وجهها ؟ ام تريد ان ترى جسمها من فوق الصدر وقد تدثرت بالحرير الغالي ؟ ام تريد ان ترى جسمها كله وقد برزت في الغلائل النادرة من صنع اصفهان ؟

قال : لست اريد شيئا مما ذكرت انما اريد أن اتحدث اليها في مسائل يصعب عليك فهمها . .

قالت : ان هذا شيء محال !

قال : اذا فأليك خمسين درهما لكي انظر الى وجهها . فأخذت المراة المال ثم فتحت بابا وسارت بالفتى في ممر ضيق يقوم على جوانبه الخصيان . ثم تركته في غرفة صغيرة في احدى حيطانها ثغرة حصنت بقضبان من الحديد . ومن ثنايا تلك الثغرة استطاع ان يرى غرفة كأنها واحدة من غرف القصور وحذرته المراة وهي تغادره بقولها : لا تحدث سيدتي حديثا . الا فانك لن تستمتع بالنظر اليها . .

ودق قلب الفتى دقا سريعا عاليا . وجاءت الحسناء الفاتنة « اميرة » ووقفت خلف قضبان الحديد ففتن لمرأى كل ذلك الحسن . ولما التقت عيناه بعينيها فقد كل قدرة على التفكير . ولكنه استجمع قواه كلها وقال : أي سيدتي اني مبعوث من قبل سيدي . وهو تاجر غني من استانبول . وهو يريد الزواج منك . وصداقك عنده صندوق مليء ذهبا . وملابس من اغلى الملابس . وهداياه كل شيء تشتهيه . وذلك اذا رضيت بمفارقة بغداد وبمصاحبته الى بلده .

وكان جواب « اميرة » ان اشارت بيدها فأغلقت النافذة . وحرم من النظر اليها . . وملأ الحزن قلب « جميل » وعاد الى دكانه وقد سئم العمل ذلك لانه كان قد تولاه الذهول .

وفي اليوم التالي بل في الايام التالية كان يذهب الى بيت فاتنته فيعطي العجوز الف درهم في كل مرة لينظر نظرة الى التي سلبت فؤاده . وهي في أبهى مجاليها . . . وفي كل مرة يحاول ان يتحدث اليها تغلق النافذة وتنتهي متعة النظر . . وظل على تلك الحال ستة شهور كاملة ونفد المال واقفر الدكان . فلما رأى نفسه قد بات خاوي الوفاض تنكر في زي امين تركي وذهب الى بيت « اميرة » وقال للعجوز : لقد زرت هذا البيت مائة مرة ومرة وقد نفد المال الذي اعطاني اياه سيدي الباشا ولم اوفق في قضاء المهمة التي وكل بها الي . فأذني لي ـ بدافع من الاشفاق والرحمة ـ ان ارى سيدتك حتى افرغ من مهمتي . . ولكن العجوز اشارت الى الخصيان فأخذوه والقوا به في عرض الطريق ثم ضربوه بالسياط وبالعصي ضربا مبرحا . وتركوه والدم ينزف منه . وجاءته العجوز تقول : اغرب من هنا يا كلب الترك . . وتنح عنا بعيدا . . والا فان سيدتي سوف تنتقم منك كما سوف تنتقم من بني الدنيا جميعا . واني لقائلة لك ان سيدتي من اصل ملوكي . فقد كان ابوها ملكا من ملوك الفرس . اما الملكة امها فقد كانت في الحسن آية . وقد اوذيت اول الامر ايذاء شديدا من وزيرها الخائن ثم قتلها بعد ذلك اشنع قتلة . . فلما علمت سيدتي الحسناء «اميرة» بما جرى لامها أقسمت لتتخذ من جمالها ـ وهو سلاحها الاوحد ـ وسيلة لايراد الرجال موارد الهلكة . ذلك لانها لم تر في الرجال الا الخيانة والغدر . اما الفضيلة ومكارم الاخلاق فهي ـ في نظرها ـ من خصائص النساء . .

وسمع التاجر « جميل » قول الخادم العجوز ونهض من رقدته . وعاد الى دكانه . وقلبه قد أثقله الجوى والحزن . . واتفق ان مر بالسوق ـ مستخفيا ـ في ذلك اليوم « ابو نواس » نديم الخليفة . وهو يتمنى ان يسمع نكتة يفكه بها سيده . ويسري عنه . وينسيه هموم الخلافة ومتاعب الحكم . واذ هو يطوف بالدكاكين التي تفيض جنباتها بغالي الثياب المطرزة من صنع دمشق والصين نظر فرأى دكانا خاويا على عروشه وقد جلس فيه شاب جميل الصورة يبكي بكاء تنشق له الضلوع فراح ابو نواس يحيي الفتى ويقول له : هيه يا ولدي! ماذا تبيع ؟ اظنك تبيع الهواء ؟ فانا لا ارى بضاعة سواه . .

قال الفتى : فسر مني يا سيدي كما تفسر من الطاعون فقد وهن العزم مني وغاب العقل . وليست ترى عيناي الا شيئا واحدا هو وجه فتاة . وليس ينجيني من العذاب الذي اعانيه الوانا غير ملك الموت . . ولكن ابا نواس لم يلق بالا اليه بل جلس . وطفق يمطره باسئلة حتى قص عليه قصته وافضى اليه بذات نفسه .

وسمع « ابو نواس » القصة وقال مناجيا نفسه : انها قصة تصلح لتسلية مولاي الخليفة . . . ثم قال للفتى : ان قصتك يا فتى لتترك الحسرة في القلوب . والحق أنك قد سرت في كل ما مر بك وقصصته علي وفقا لاهواء قلبك فاذا انت انتصحت بنصحي فسوف يرجع اليك مالك . وليس عليك لبلوغ ذلك الا ان تأتم بي ، وان تفعل مثل ما افعل ما دمت ترى عيني مفتوحة فاذا اغمضت عيني اليمنى فلا تفعل شيئا حتى تتحقق كل رغباتك .

وصحب « ابو نواس » التاجر « جميل » الى دكان التنكير وهناك ارتدى كلاهما ملابس الصينيين . ولكن « ابا نواس » ترك وجه الفتى في غير تنكير ليبدو جماله . ثم ذهب « ابو نواس » وفي صحبته الفتى وجاء بكيس مليء ذهبا ثم اشترى قاربا . واشترى كذلك حمارا صلب العضل . ثم قرنه الى القارب بالحبال

ولكن لم ينزل القارب الى النهر بل جعله فوق الرمال . وجلس «ابو نواس» وصاحبه في القارب. واخذ الحمار يجر القارب فوق الرمال . واتخذ طريقه الى ناحية البيت التي تقيم فيه المليحة فلما اقتربا منه بدا « ابو نواس » يغني الاغنية التالية :

أبا دبا أبا دبا
دبا أبا دبا أبا
أبا دبا أبا دبا

وكان الفتى « جميل » يشدو شدوه . ويغني غناءه . وما لبثا ان رايا نافذة تفتح . ووجه خادم يبدو في تلك النافذة . وسمع « ابو نواس » الفتاة الخادم تنادي سيدتها وتقول : تعالي يا سيدتي وانظري فهناك رجلان غريبان يركبان قاربا يسير بهما فوق الرمال. تعالي وانظري هذه الاضحوكة. تعالي وانظري هذه الاضحوكة . وسفر وجه الفتاة في غير نقاب . وقال « ابو نواس » لجميل : انظر الى ذلك الوجه واطل النظر واستبق لنفسك الخمسين درهما . .

ثم وقف « ابو نواس » حماره وخرج من القارب . وجاء بأرز ولحم وجمع حطبا واوقد نارا . ولكنه اوقد النار في داخل الاناء ووضع الارز تحت القدر . ولم يضعه في الاناء ولم يغمسه في الماء . وقالت الفتاة « اميرة » لخادمتها : انظري كيف يطهو هذان الرجلان طعامهما . فالارز ليس في الماء ولن تنضجه النار فكيف يستساغ هذا الارز ؟

وقال « ابو نواس » لصاحبه بعد ان ظل الارز تحت النار — لا فوقها — عشر دقائق : تعال نأكل يا ابن اخي فقد نضج الطعام . ثم امسك بملء يده ارزا والقاه في قميص الفتى عند فتحة العنق . واخذ « جميل » يقلده فأمسك بحبات الارز وصبها في قميص صاحبه كما فعل . .

وشاهدت الفتاة « اميرة » كل هذا فدهشت وقالت لخادمتها : هيا بنا ننزل الى حيث يجلس الرجلان فنمتع انظارنا برؤية هذه الامور العجيبة . وراحت الفتاة . وحيت «ابا نواس» وصاحبه وقالت لهما : مرحبا بكما ايها الغريبان . واننا لنرجو ان تغتفرا لنا جراءتنا واهتمامنا بهذه المناظر التي لم نشهدها من قبل فمن انتما ايها الرجلان ؟ ومن اي البلاد جئتما؟

قال « ابو نواس » : اعلمي يا سيدتي اننا من بلاد تقع فيما وراء البلاد الصينية وهي بلاد لم يزرها — لبعدها — احد من العرب . ومليكنا هو الملك الكبير « أبا دبا » وهو الذي اشتهر بالسخاء وبالحكمة حتى لقد بلغ من حكمته انه قعَّد القواعد للسلوك وفقا لاحكام الفلسفة . وجعل الاعدام عقوبة لمن يخالف عن امره . وهو الذي سن سنَّة تقول انه ما دامت النار عنصرا من أقوى العناصر حتى لتستطيع ان تحرق الكتب التي تحتوي الحكمة نفسها فان وضع الطعام فوقها جريمة لا تغتفر . .

ومن سنته التي استنها ان ركوب الانعام عمل من اعمال عباد الوثن فان الخيل والبغال والحمير من خلق الله فكيف تهان وتستذل بالركوب ؟ وكذلك من سنته التي استنها ان العجلات رجس من عمل الشيطان الذي يكره الخط السوي والصراط المستقيم . وليس في الدنيا شيء اكثر انحرافا واقل استقامة من العجلات . . وما دامت العجلات مكروهة . وما دام ركوب الانعام محرم علينا فنحن نتخذ القوارب مطايا لنا في السفر سواء أكان ذلك في البحر ام في البر . . وانت اذا سألت يا فتاتي عن السر في اننا نضع الارز في اقمصتنا عند فتحة العنق قلنا : كيف يستسيغ الحلق ازدراد الارز جافا غير مبتل . .

وضحكت الفتاة وخادمتها لقول « ابو نواس » ضحكا تخالطه الدهشة وقالت لهما : أتأذنان لي ايها الغريبان في ان اجيء لكما بطعام أجيد طهوه ترفيها عما لقيتماه من عناء السفر ؟

قال « ابو نواس » : اننا نقبل شاكرين ولكن بشرط واحد هو ان تمسكا انتما بالطعام وتضعاه في افواهنا . والسر في ذلك ان مليكنا « أبا دبا » يملك مرآة سحرية فهو ينظر فيها كل حين وهو يرى في صفحتها ما يعمله كل فرد من رعاياه. اما انتما فلا تبدو صورتكما في المرآة لانكما لستما من رعاياه . وهو اذا رأى ايدينا تدخل افواهنا علم اننا نأكل طعاما انضجته النار . اما انتما فلن تبدو ايديكما في صفحة مرآته.

وعادت «اميرة» وخادمتها وبداتا تعدان الطعام فذبحتا شاة واوزة ودجاجة وحمامة وقبرة . وبعد سلخها وتنظيفها وضعتا الاوزة في بطن الشاة . ووضعتا الدجاجة في بطن الاوزة . ووضعتا الحمامة في جوف الدجاجة . ووضعتا القبرة في جوف الحمامة . وجاءتا بارز معالج بالزعفران ثم انضجتا كل ما اعدتاه انضاجا كاملا. وقالت «اميرة» لخادمتها : اذا كان في الرجال واحد يمثل الفضائل كلها فهو ذلك الفتى. ذلك لان جمال وجهه يمثل صورة من صور ولدان الجنان . . ثم نهضتا فحملتا الطعام الى « ابي نواس » و « جميل » . وأمسى المساء . وامتد رواق الظلام لولا بصيص من ضوء الهلال الوليد . ولولا ما يبدو في السماء من نجوم . .

ثم حملتا اليهما كذلك اغلى الخمور واجودها صنوفا . ثم تولت الخادمة وضع الطعام في فم « ابي نواس ». وتولت « اميرة » وضع الطعام في فم « جميل » وشرب « ابو نواس » وشرب « جميل » من الخمر الى حد الامتلاء . .

وطوق « ابو نواس » الخادمة بذراعيه ثم قبلها . ونظرت الفتاة « اميرة » الى « جميل » وملأت عينيها بجمال محياه وامتلأ قلبها بحبه وقالت له : قبلني كما يقبل صاحبك خادمتي . . ولكن جميل نظر الى «ابي نواس» فرأى عينه اليمنى مغمضة . ولذلك لم يفعل

انا شاعرة

* * *

بسحر الجمال انا شاعره … أهيم بفتنته الآسره
بخفق القلوب اذا ما هفت … وطافت بدنيا الهوى الساحره
بسيل الدموع من القلب فاضت … على وجنة الفادة الناضره
بحلم العذارى سهرن حيارى … مع النجم في وحدة ساهره
بنجوى الحبيبين في نجوة … تضمهما النشوة الغامره
بشدو البلابل فوق الغصون … ترنح اعطافها الزاهره
بترنيمة الام حول المهاد … تهدهد طفلتها الطاهره
بشوق الغريب الى اهله … وقد طالت الغربة الجائره
بساقية في الحقول تغني … وفي قلبها لوعة هادره
بتلك القلوب التي شفها … هواها لهاجرة سادره
بلحظ البنفسج يرنو خجولا … وينفث انسامه العاطره
بنظرة عين تشيع الحنان … وعين لها نظرة فاتره
ونظرة عين تبوح بسر … وعين على سرها ساتره
فعين تبوح وعين تصون … وعين بدمع الاسى ماطره
بسحر العيون وهمس الشفاه … ونجوى القلوب انا شاعره

مصر الجديدة **روحية القليني**

فعله وقال: اعلمي ايتها المليحة الحسناء ان التقبيل قد حرمه مليكنا «ابا دبا» الا بعد امتحان في فن التقبيل يعقد مرة في كل خمس سنين ويحضره الملك وبطانته . ذلك لان « ابا دبا » يرى ان التقبيل اكثر الامور خطورة. وهو لذلك ينبغي ان يؤدى على خير وجه .. اما صاحبي فقد نجح في الامتحان . وهو حاصل على شهادة تجيز له تقبيل من يشاء .. اما انا فلم تتح لي فرصة الامتحان بعد .. ولذلك فان الملك « ابا دبا » اذا نظر في مرآته السحرية ورأى شفتاي تتحركان حركة التقبيل – ولو ان صورتك لن تظهر فوق صفحتها – فانه سوف يعرف أن هناك شخصا تجري عليه عملية التقبيل حتى اذا عدت الى بلادي كان عقابي ان اقبل قضيبا من الحديد المحمى فتحترق شفتاي احتراقا كاملا ..

ودهشت الفتاة لما سمعت وظلت تراقب « ابا نواس » وهو يقبل خادمتها . وزاد فمد يده الى كم قميصها ..

واعادت الفتاة القول على «جميل» ونظر جميل فرأى عين «ابي نواس» ما زالت مغمضة فقال للفتاة : ايتها الحلوة المليحة اني اعيد عليك القول ان صاحبي وانا جد مختلفان فهو بارع في فنه . اما انا فلم ابدأ التعلم بعد . واخشى ان يعرف الملك جلية الخبر فيجعل مثواي قفصا يشاركني العيش فيهوحش كاسريزبد ويرعد.

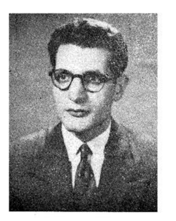
واشتد حزن الفتاة على ما لقيته من صد . ولكن « ابا نواس » جاءها يقول : اذا كنت تريدين ان يقبلك الفتى فليس هناك غير طريق واحد. وهو ان يعود الفتى مرة اخرى الى بلاد الملك « ابا دبا » . وهو لا يفعل ذلك الا اذا امضيت عقدا تهبينه بموجبه بيتك وارضك . وذهبك وفضتك . واثاثك ورياشك . وكل ما تملكين . وان تعديه بالتزوج منه. فاذا فعلت استطاع ان يلبي نداءك في غير خوف او مبالاة ..

ونظرت الفتاة الى « جميل » وبدا حبها له عنيفا جارفا . ثم جيء لها بالورق والاقلام وكتبت لفتاها صكا ذيلته بتوقيعها . وشهد على صحة الصك « ابو نواس » والخادمة ...

وتم زواج الفتاة بالفتى وفق ما تقضي به الشريعة ..

وغدا « أبو نواس » الى قصر الخليفة . وقص القصة كاملة غير منقوصة على مسامع الخليفة فضحك الخليفة حتى بدت نواجذه . وامر لابي نواس بمال كثير ..

القاهرة **مبارك ابراهيم**



محمد رجب البيومي

سعيد بن المسيب وعبد الملك بن مروان

نماذج من العظمة النفسية

بقلم محمد رجب البيومي

***

دخل روح بن زنباع على امير المؤمنين عبد الملك بن مروان متهللا ضاحكا ، وقال في ابتسام مرح : هنيئا لك يا امير المؤمنين ، فقد خذل الله على يديك عدوك اللئيم عمرو بن سعيد العاص وبلغك فيه ما تريد !

فقال جليس يتملق عبد الملك ويجاريه : ومن عمرو بن سعيد ؟ لقد نصر الله امير المؤمنين على آل الزبير بمكة ، وشيعة بني هاشم بالعراق ، وملحدة الخوارج بالجزيرة ، وعاهل الروم بالمصيصة ! !

فمن يكون عمرو مع هؤلاء ؟

فأطرق روح ، واخذ مكانه بين الجالسين ولم يشأ ان يفوه بجديد !

ولكن عبد الملك يرفع راسه في اتزان ويقول في وقار هادىء : لقد كان مصرع عمرو بن سعيد مأساة كشفت معادن الناس فصرت اثك في كثير ممن يداهنون بالحديث.

فنظر القوم بعضهم الى بعض حائرين ، وقد خاف كل سامع على نفسه ، فربما عناه الخليفة بما يسوق من تعريض ، وعبد الملك داهية حصيف يلفظ الكلمة العابرة فتهدف الى مرمى بعيد ! !

ولكن روح بن زنباع يستجمع شجاعته ، ويطمئن الى ثقة الخليفة به ، فيقول في ثبات حازم : افصح يا مولاي عما تريد ! ! اي مأساة تكشفت لك في مصرع خائن عنيد ؟ فاعتدل الخليفة في مجلسه وتطلع اليه القوم في حذر صامت ، وقد ارهفوا اذانهم الى كل حرف يقوله الخليفة ، وانبرى عبد الملك يقول :

لقد جاءني عمرو بن سعيد حين استدعيته في اربعة الاف رجل من اعوانه ، معهم سلاحهم الراعب ، ولديهم عدتهم الواقية ، فأخذوا يطوفون بقصري في ضجيج مزبد متصايح ، حتى خاف اخي عبد العزيز علي ، ورجاني ان اصرف الرجل الى معشره حذرا من العاقبة المتوقعة ، ولكني قامرت بقتله غدرا ، ورميت برأسه الى ذويه ، تسيل دما من فوق الاسوار ، ثم طرحت معها الاف الدنانير والدراهم فتشاغل القوم بجمع المال ، وطار كل مأجور بما حمل ، وبقيت رأس عمرو في الطريق ! !

فرد روح في دهاء : هؤلاء رعاع اوغاد ، لم يكونوا يضمرون الحب لعمرو ، وقد استهواهم بالمال وحده ، فحين اتى اليهم من غير طريقه خذلوه ! ! اما نحن يا امير المؤمنين فنعطيك عن هوى خالص ، ونبذل ارواحنا في سبيلك طائعين ، وقد جربتنا فيما سلف من المآزق ، فعرفت من نكون ؟ فلا تظن الناس جميعا بمنزلة سواء !

وقال متملق اخر : ان الفرق بيننا وبين جنود عمرو ، لكالفرق بين عزة امير المؤمنين وذلة غريمه ! فكيف تقيس فريقا بفريق ! !

فابتسم الخليفة الداهية ، ونظر الى المتكلم نظرة معبرة، وكأنه يقول في تخابث : اخدع غيري فأنا اعرف طبائع العالمين !

ودخل الوليد بن عبد الملك فنهض الحاضرون اجلالا لمقدمه ، وانحنوا برؤوسهم الى الارض مبجلين معظمين ، فصافحهم في عزة ، ثم تقدم في رزانة هادئة الى ابيه الجالس على كرسيه يتألق وجهه بالابتسام ، فمد يده الى يده ثم لثمها ثلاث مرات في ادب حريص ، والتفت الى الملأ الواقفين فدعاهم الى الجلوس ، شاكرا لهم استقبالهم الكريم ... ثم اعطى الخليفة خطابا قدم به سفير الروم منذ لحظات ! واستأذن في الخروج فأذن له ابوه ، والقوم صامتون يتصفحون وجه عبد الملك ، اذ يتلو الرسالة ثم لا يفوهون بشيء كما اعتادوا ، فقد يكون الامر من اسرار امير المؤمنين .

ومضت لحظات فرغ فيها الخليفة من امره ، فطوى الرسالة ، ووضعها في جيبه ، والتفت الى القوم يستمع الى الحديث .

فقال قائل من الحاضرين ! ان في ملامح اميرنا الوليد مشابه من ابيه ، ولا ارى الامة العربية قد اجمعت على شيء كما اجمعت على محبته واجلاله ، فبارك الله لك فيه يا سيدي العظيم .. ! !

فانتهز روح بن زنباع هذه المقدمة السارة ، ووجه الحديث الى ما يعرف فيه سرور عبد الملك فقال . وسيكون عهده الزاهر بعد ان يبلغ امير المؤمنين ما يشتهي من عمره المديد ، مجال سعادة للعرب ورفعة للمسلمين ، فليجهر خليفة الله ببيعته في الامصار دون انتظار ، فان ولاية العهد شاغرة منذ انتقل الى رحمة الله سيدنا عبد العزيز شقيق امير المؤمنين .

فأطرق عبد الملك اطراقة المفكر ، ثم قال في تحايل : كنت اود ان ارحم الوليد من مآزق الحكم ، ومرهقات السلطان ، واراكم تحاولون ان تخوضوا به فيما أكابد من لجج غواش ، وعواصف قاصفات ! !

فرد روح بن زنباع في صرامة : هو لها يا امير المؤمنين ، فالولد سر ابيه ، وسينعم ان شاء الله بجلال الخلافة الرائع ، ويهنأ بسعادة الاستقرار المكين .

فنظر عبد الملك في وجوه القوم ، وقال في هدوء : جلال الخلافة الرائع ، وسعادة الاستقرار المكين ! !

... أواه .. ليست للخلافة سعادة يا قوم ، هأنذا احارب الاهوال في ميادينها المترامية ، ولا اسكن فتنة العراق حتى يشغب علي الخوارج ، ولا اكاد استأصل الزبيريين حتى ينعق علي اراطبة الروم ! ! وكل يوم خبر فادح يستنزف الجهد ، ويفري الصم الصلاب ، فأين السعادة التي تظنون ! !

قال قبيصة بن ذؤيب – وكان في الحاضرين : انت اسد يا مولاي ، والاساد للشدائد والازمات ! ! والوليد اسد مثلك ، وسيحمي عرين ابيه ! !

فابتسم عبد الملك ابتسامة اشرق بها محياه ، ورأى القوم ما في وجهه من السرور ، فأسهبوا في الثناء على الوليد ، وقضوا الوقت في سمر لذيذ ، حتى اذا حانت ساعة الانصراف اخذوا يستأذنون في الخروج ، وينصرفون مثنى وفرادى ، وقد استبقى الخليفة روح بن زنباع لديه ، فعلم من بقي من القوم انه يريد الخلوة به ، فنهضوا مسرعين ! !

قال عبد الملك في همس : لقد اطمأن قلبي يا روح الى ما عرضت من امر البيعة ، ولكني اريد ان تكون طريق الوليد ممهدة معبدة فلا يصطدم بالاشواك والصخور !

فأجاب روح في اهتمام : أية صخور واشواك تظن ؟ ان جميع ارجاء الخلافة في حوزتك ولئن طرفت عين واحدة تريد الانتفاض ، فلا بد ان ينطفىء نورها دون ان تبصر ما تريد ! !

فقال الخليفة في تعقل : لا نزاع في ان الدولة الان تحت يدي ، وجميع من بها في قبضتي اتجه بهم حيث اريد ، ولكن السماء تكون صافية زرقاء ثم ينتشر الغمام فجأة فتجلجل الرعود وتلمع البروق ثم تنهمر السيول ... ولا بد من عمل حاسم نجمع به الناس قلوبا وضمائر ، لا رءوسا ، والسنة على طاعة الوليد !

ثم سكت الخليفة ... واطرق روح الى الارض يفكر فيما يسمع ، ويبحث عن رأي مصيب ، ولكن عبد الملك يقطع عليه تفكيره حين يسأله قائلا اتعرف سعيد بن المسيب يا بن زنباع ؟

فينتبه روح ويجيب مسرعا : ومن لا يعرف فقيه المدينة ، ووارث علم الصحابة ، وسيد التابعين ! !

فيقول عبد الملك : كيف علمك بحب الناس له وتقديرهم اياه ؟

فيرد روح في حماسة : لا اعرف بين العرب انسانا يملك قلوب بني الاسلام ، كما يملكها سعيد ، ووالله لقد شهدت من طاعة المسلمين له ، واقبالهم عليه ، ما لو امر احدهم بأن يرقى الى قنة جبل ثم يرمي بنفسه الى السفح لتهالك الناس على ذلك ، وكأنهم يسرعون الى جنات ناضرة تجري من تحتها الانهار ! !

فنظر عبد الملك الى جليسه ثم قال : هذا هو السلطان يا روح ، انه سلطان مشاعر وقلوب ، لا سلطان رماح وسيوف ! ! فمن لي بمثل ذلك للوليد ؟ ... لقد فكرت – وهذا سر بيني وبينك – ان اخطب الى الوليد ابنة سعيد ، فاذا اصبح زوجها المختار ، وانتقلت الى بيت الخلافة بدمشق ، وشاع بين العرب ان الوليد قد ضمن حب سعيد ، فستخضع له القلوب الابية ، وتتسع له الصدور المنقبضة ، ويصبح – عن حق – امير الدولة وسيد المسلمين

فقال روح – وقد استشف بنظرته سريرة امير المؤمنين ورأى الاجدر ان يطيعه ويزكي رأيه – : وما يمنعك من ذلك يا مولاي ؟ وهذه اجمل بشارة يمكن ان تزف الى سعيد ! !

فقال عبد الملك مستفهما في دهاء : ومن يزفها اليه يا صاح ؟ فأسرع روح يجيب: اذا احرزت ثقة امير المؤمنين، فاني اعجل بالرحيل الى المدينة فأقوم بما تريد !

فهمس عبد الملك يسر الى صاحبه ، وليس معهما احد ، ولكن ليعطيه صورة قوية عن حذره وحيطته: سر على بركة الله ، ولا تبطىء في المدينة لغير حاجة ، فأنا في عجلة تتطلب حضورك السريع ، ثم وقف الخليفة ناهضا ... فأدرك روح ان موعد انصرافه قد حان ، فتلمس طريقه الى الباب في تأدب حريص .

* * *

شاهد وجوه المدينة روح بن زنباع يسأل عن مجلس سعيد بن المسيب ، فيعلم انه بمسجد رسول الله ، فيسرع الى لقائه في لهفة ، ويراه ناهضا يتلو القرآن في صلاته بين يدي ربه ، فينتظر متمهلا حتى يفرغ من شأنه ، ثم يتقدم الى يده فيلثمها متفائلا متبركا ، ويقول في ادب خاشع :

انا رسول امير المؤمنين ؟

فيرد سعيد في تؤدة : وماذا يريد امير المؤمنين ؟

فيبتسم روح ابتسامة ذات دلالة سارة ثم يقول : جئتك

منه بخير جزيل .

فيرد سعيد دون ان يمهله : الخير من الله وحده لا من مخلوق ضعيف ! !

فيضطرب روح لما يسمع ثم يتدارك ثباته فيقول :

ان امير المؤمنين ايده الله يقدر منزلتك العالية في المسلمين ، وقد راى ان تكون ابنتك الطاهرة زوجة صالحة لابنه وولي عهده الوليد ، وقد بعثني بشيرا اليك فباي شيء تجيب ؟

فيقول سعيد ـ وهو يهز رأسه ـ ما شاء الله ! ! عبد الملك يريد ان يصهر الي ! ! انتظر يا بني الى الغد ، حتى آتي الفتاة فأسمع منها الراي فهي صاحبته الاولى دون شريك ! !

فيقول روح في ادب : ومتى اسعد بلقائك الكريم ؟

فيرد سعيد في ثقة : غدا في مثل هذا الوقت بمسجد رسول الله ! !

فيستأذن روح مترقبا ما يأتي به الصباح القريب .

وخلا سعيد الى تفكيره فاخذ يتأمل فيما حزبه من الطارىء الجديد ، ثم قال هامسا وكأنه يجرد من نفسه رجلا يبادله الحديث : ان عبد الملك يريد ان يتخذ مني ستارا يحجب عن الناس جبروته البغيض ، ويسكت الالسنة اذا خاضت في شأن الوليد ، وان هذه الاسرة من بني امية ما انفكت ترمي الناس بكل داهية ينتهز الفرصة فيبني مجده الخاص على نثار الجماجم المتطايرة ، والاشلاء المبعثرة ، والدماء المراقة ، ولن يكون الوليد اعدل من ابيه ، كما لم يكن عبد الملك اعدل من مروان ! ! وقد ابتلانا الله به واليا طاغيا في المدينة ، ثم خليفة جبارا في دمشق ، أفيكون ابن المسيب ستارا يخفي المظالم ، ولسانا يدعو الى البغي والشقاق : الا خاب سعيد وخابت بنت سعيد اذا كانا مطيتين سريعتين الى طريق الضلال ، لن ابلغ بالرجل ما يريد مهما تخابث واحتال ...

ونظر سعيد فيمن حوله فرأى تلميذه الفقير الواهن عبد الله بن وداعه يتقدم اليه ، فسأله اين كنت يا عبد الله؟ لقد تلمستك من ثلاثة ايام فلم اعرف عنك شيئا يا صاح؟

فقال التلميذ في انكسار : لقد ماتت زوجتي منذ يومين بعد مرض طويل .

فرد سعيد : انا لله وانا اليه راجعون ! الا اعلمتنا بمرضها فنعودها ، أو بموتها فنشهد جنازتها ! !

فقال عبدالله : لقد استحييتان اتعبك يا سيدي الكريم .

فنظر اليه سعيد متسائلا : الك رغبة في الاقتران بغيرها يا عبد الله ؟

فأجاب في ذلة ضارعة : يرحمك الله يا سيدي ، من يزوجني وانا طالب علم فقير لا املك غير قوت اليوم !

فأشرق وجه سعيد وقال : انا ازوجك ابنتي الليلة ، واكون مرتاح النفس اذ ازفها الى طالب علم يحفظ القرآن ، ويروي حديث رسول الله ويتجنب المحارم ويحذر الشبهات !

فبهت ابن وداعة ولم يجب ! ! فقال سعيد : أترفضها يا عبد الله ؟

فأكب الطالب على قدميه يلثمهما في ذلة ويقول : عفوك يا سيدي اين انا من مقامك الجليل ؟

فقال سعيد في حزم : قم فادع نفرا من الانصار فأشهدهم على الزواج ، فتلكأ ابن وداعة مستحييا متحيرا، ورأى سعيد ذلك في وجهه ، فصفق بيديه ، فحضر رهط من تلاميذه فأشهدهم على ما كان ، واصبحت الفتاة زوجة طالب العلم الفقير ، وفي المساء صحبها والدها الى منزل الزوج ، ومعها الخادم والدراهم والدقيق وبات سعيد ليلته مسرورا ، وقد رد عمليا على خطبة امير المؤمنين .

* * *

اشرق الصباح ، وقدم روح بن زنباع الى المسجد فسمع الناس يتحدثون عن زواج ابنة سعيد ، فأخذ يضرب كفا على كف ، ولم يشأ ان يقابل الفقيه الورع بعدما صنع فقد انتهى الامر على غير ما يريد ... فركب راحلته واستأنف المسير الى دمشق ، وفي نفسه ثورة عارمة على هذا المترفع المتشامخ الذي آثر طالبا فقيرا قميئا بما رغب فيه ولي العهد ، وسعى الى تحقيقه امير المؤمنين .... وكان لقاء شاحب مبتئس في قصر الخلافة بين الرسول والمرسل فقد الم عبد الملك بما كان ، وعض على يديه غيظا ان عرض نفسه لاهانة قاسية ، لم يكن يتوقعها من احد ، وطلب الى روح ان يكتم الامر ما استطاع ، فلا تقف عليه اذن في دمشق ، ثم قال في مرارة كظيمة : وهبني ضمنت لسان روح ! فمن يضمن لي لسان سعيد ؟ !

ودارت الايام ، وامير المؤمنين يفكر تفكيرا دائبا في الدعوة السريعة الى مبايعة الوليد ، في جميع الامصار الإسلامية بالعهد من بعده ، وقد بادر الى تنفيذ ذلك متخذا رسائله السريعة ، فتمت البيعة في جميع العواصم العربية دون المدينة .. ، فقد تريث عبد الملك ان يفاجىء جرم رسول الله بما يريد ! اذ ان سعيدا سيعلن رأيه بما لا يحب، فيجذب اليه سواد الناس ، وتكون فتنة عارمة يتصدع بها ثبات الوليد ! وقد عقد الخليفة لذلك مجلسا من خاصته وذوى سره ! وطرح الموضوع على بساط المناقشة ليصل الى حل مفيد ! !

قال قائل من الحاضرين : وهب ان سعيدا قد تخلف عن البيعة يا امير المؤمنين ، فماذا يصنع فرد واحد بين الملايين ! !

فرد عبد الملك : لو تخلف عن البيعة مئات من رجال السياسة وذوي العصبية ، ما اهمني ذلك في شيء ! ! اذ ان جميع الناس سيدركون انه خلاف شخصي لا صلة له بالشريعة والاسلام ! ! ولكن تخلف سعيد وهو رأس العلماء في عصره مدعاة الى لجاج كثير ...

فقال قائل ثان : لقد بايع عشرات الفقهاء في كل حاضرة من حواضر الاسلام ، فاذا اتفق هؤلاء جميعا ـ وهم حماة الشريعة ودعاة الملة ـ على البيعة للوليد، أفيؤثر علينا تخلف سعيد ! !

فأجاب امير المؤمنين في صرامة حاسمة : يا قوم ، سعيد عالم مدينة رسول الله ، وامام اهل الملة بالحجاز ، واثره الديني والروحي لا يتعلق به متعلق ، فاتركوا بربكم هذا القياس ! !

فقال قائل ثالث : لنأخذ رايه اولا على انفراد فعساه يلين ! !

فقال عبد الملك في اسف : هيهات ... لقد حاولت ذلك مرات ، فوقفت على ما لا اتحمل ! وتلك ثغرة احاذر ان تتسع ذات الشمال وذات اليمين !

فأطرق القوم ساهمين ، ولاحظ امير المؤمنين ما يرين عليهم من القنوط فقال في حدة : لا بد من الحزم السريع ، لن ادعوه الى المبايعة كغيره من الناس ، بل اشير عليه بالسكوت اذا تلا القارىء كتاب البيعة في المسجد الشريف، فاذا لم يشأ ذلك ، فليلتزم منزله يومئذ فلا يفد الى المسجد حتى ينتهي الامر ، فاذا اصر على ملازمة المسجد ، فلينتقل من مكانه المعتاد الى ناحية اخرى ، فيأتي الرسول اليه فلا يراه وفي ذلك كله تهوين عليه وتجنب للخلاف ! !

فقال قائل مريب : واذا ركب راسه واراد التنديد فماذا تصنعون ؟

فصاح الخليفة مغتاظا : آخر الدواء الكي ، ولا بد مما سيكون .

فأمن القوم على ذلك ، وانفرط العقد اذ بادروا بالخروج بعد قرار حاسم في امر سعيد .

* * *

وجاءت رسل البيعة الى يثرب ، فتقدم هشام بن اسماعيل والي المدينة الى سعيد يعرض عليه ما اقترحه امير المؤمنين في شأنه ، وقال له في استعطاف : لقد قبل الخليفة ان يقرأ الكتاب بالمسجد فلا تتكلم بلا او نعم !

فقال سعيد محتدا : سيقول الناس بايع ابن المسيب اذ صمت ! !

فقال هشام : لقد قبل الخليفة ان تجلس في بيتك حينئذ فلا تشارك المجتمعين بالمسجد .

فأجاب سعيد في استخفاف : ما انا بفاعل ، كيف اسمع المؤذن يقول : حي على الصلاة ، ثم لا ابادر بالذهاب!

فكتم هشام غيظه المنفعل في حدة ثم قال : لقد قبل الخليفة ان تنتقل من مجلسك الى غيره ، فاذا جاء الرسول فلم يجدك امسك عنك ! !

فقال سعيد في سخرية : ما انا بفاعل ، اخوفا من مخلوق احتال على التهاون والاغضاء ! !

فانصرف الوالي يائسا يفكر في الخطوة الاخيرة وانها لذات عقابيل .. ! وكان ما لا بد ان يكون ... فقد حانت الساعة الحاسمة ، وارتفع الصوت المؤمن بالمعارضة ، فسيق الشيخ الواهن الى العذاب ، وضرب بالسياط ضربا مبرحا، وصب الماء البارد على جسده النحيل حتى اغمي عليه ، ثم حبسوه !

* * *

وطارت الانباء الى مجلس عبد الملك وقد تحلق حوله ذوو مودته فتعجب تعجبا شديدا من صلابة سعيد وعناده، وتزلف اليه مستمع مداهن، فسأل امير المؤمنين في تعجب: لماذا لم يبايع هذا الشيخ الخرف سيدنا الوليد ، وليس بدمشق غيره من اولى النبالة والورع والجهاد ...

فأجاب مستمع اخر ينافس سابقه في الملق الرخيص : ان سعيدا يرفض البيعة لسيدنا الوليد ، وامير المؤمنين على قيد الحياة ، ولو كانت البيعة بعد امد مديد ان شاء الله لاجاب ثم اجاب ....

فنظر عبد الملك الى القوم وقال في اسف : علام نخدع انفسنا في سعيد ؟ ان الرجل يعتقد ان خلافة بني امية ذات الارث المتتابع لا تتجه وجهة الاسلام ! ! وهو على اعتقاده حريص ، ففيم الجدال ؟

واحس الرجلان بالخجل فانصرفا ... وخرج القوم وراءهما متتابعين .

الفيوم **محمد رجب البيومي**

وحشة

كنت .. وحيدا هذه الليلة
اشرب من بحر الاسى نهلة
وكانت الاسرار
تغمرني بالصمت .. والوحشة .. والتذكار

لو مرة تفتح لي قلبها
تهمس لي .. تمنحني حبها
تطفىء لي غلة
لو مرة تفتح أبوابها
للقلب .. يا انت الذي تملأ محرابها

يا طيفها في هذه الليلة
عرج على دربنا
يا طيف أحبابنا
املا لي المقلة
واحمل لها أعماقنا قبلة

بغداد **خالد الحلي**

كان ذلك في موسم الحصاد منذ تسع سنوات خلت، حينما اصطحبت بيتر سرجيفتش الى مكتب البريد ذات اصيل ، لنرسل خطابا .

كان الطقس بديعا ، ولكن ما ان اتخذنا طريق العودة حتى سمعنا قصف الرعد ، ورأينا سحابة سوداء متجهمة تسير تجاهنا ، وتقترب منا ، ونحن نقترب منها .

ومن خلفها لاح لنا البيت والكنيسة ، وبدت اشجار الحور العالية في لون الفضة ، وانتشرت رائحة المطر المختلط بالحشائش المجزوزة ، وكان مرافقي يضحك باستمرار ، ويمزح بكلام تافه .. لقد قال : انه يتمنى لو نلاقي على الطريق فجأة ــ قصرا من قصور العصور الوسطى ، ذا ابراج مسننة ، وجدران مغطاة بالطحلب ، يعشش فيه البوم ، كي نحتمي فيه من المطر ، حتى لا يصعقنا الرعد في النهاية .

لكن الموجة الاولى من العاصفة انطلقت في حقول الشوفان والجودار، وزارت الريح العاتية ، وبدأ الغبار يملأ الجو ، وضحك بيتر سرجيفتش، وهز الحصان وهو يصيح :

ــ حسن ! .. حسن جدا ! !

واعداني مرحه ، فصرفني عن التفكير في انني سأبتل تماما ، وقد اهلك من الرعد ، واخذت اضحك انا ايضا .

انك حينما تستنشق هذه الرياح ، وتحس نفسك كالطيور وسط الدوامة الهوائية في رحلتها السريعة، فان ذلك يؤثر في النفس، ويهيج القلب .

وعندما وصلنا الى فناء بيتنا كانت الرياح قد توقفت ، وبدأت زخات المطر الفزيرة تقرع الحشائش والسقوف ، ولم يكن احد عند الاسطبل ، فقاد بيتر سرجيفتش الحصان الى مربطه ، ووقفت انا عند عتبة الباب اتفرج على المطر ، وكانت رائحة الاعشاب هنا اقوى مما كانت في الحقل ، واظلم الجو من السحاب والمطر عقب قصفة عنيفة جدا من الرعد ، تخيلت معها ان السماء قد انشقت .

وقال بيتر سرجيفتش :

ــ ما اشد قصف الرعد ! فيم تفكرين ؟

ووقف قريبا مني على عتبة الباب، ونظر الي ، ولاحظت انه يرمقني باعجاب ، ثم قال :

ــ يا ناتاليا فلاديميروفنا ؟ !

انا ابذل حياتي ثمنا لكي اظل واقفا هكذا اتأملك اطول مدة ممكنة ، فأنت اليوم رائعة الجمال !



لانطون تشيخوف

ترجمها عن الروسية

رضوان ابرهيم

ونظرت عيناه باعجاب وضراعة ، وبدا وجهه شاحبا ، وتدلعت على لحيته وشاربيه قطرات المطر التي كانت تبدو هي الاخرى وكأنها تنظر الي في حنان ، وقال :

ــ انا احبك .. احبك ، وانا سعيد برؤيتك . انا اعرف انه من غير الممكن ان تكوني زوجة لي ، ولكنني اريد شيئا واحدا فقط .. ان تعرفي انني احبك ! اصمتي .. لا تجيبي ، ولا تشغلي بالك ، ولكن اعلمي انك عزيزة علي وحسب !

لقد منحني اعجابه ، وكنت احدق



في وجهه المعبر ، واسمع صوته وانا كالمسحورة ، لا استطيع ان ابدي حراكا ، وقد وددت لو اظل احدق في عينيه المضيئتين ، وان انصت له هكذا الى الابد ! !

وقال بيتر سرجيفتش :

ــ جميل منك ان تصمتي، واجمل منه ان تستمري في صمتك !

كان هذا شيئا رائعا بالنسبة الي ، فضحكت بملء السعادة التي اشاعها في كياني ما ابداه من اعجاب بي ، وركضت الى البيت تحت وابل المطر المنهمر ، وركض خلفي كذلك وهو يضحك .. لقد كنا نجري الى حجرتنا في ضجيج كضجيج الاطفال!

ورمقني ابي واخي في دهشة ، وبدآ يضحكان .. انهما لم يرياني مرحة كما انا اليوم ، ولم يعتادا ان يسمعاني ضاحكة ابدا !

انقشعت السحب العاصفة، وصمت الرعد ، ولكن ما زالت قطرات المطر تلمع على لحية بيتر سرجيفتش .

كان يغني ويصفر طول الوقت حتى ساعة العشاء ، وكان يحدث ضجيجا عاليا وهو يداعب الكلب ، ويجري خلفي من حجرة الى حجرة ، حتى اوشك ان يصرع الخادم الذي كان يحمل الينا الشاي !

عندما ذهبت لانام اوقدت الشمعة، وفتحت نافذتي على مصراعيها ، وكان يستولي علي شعور مبهم .

تذكرت انني حرة ، وانني في صحة جيدة ، وانني غنية ، وانني من الاشراف ، وانني محبوبة !

والاهم انني نبيلة .. وغنية ، كم كان هذا شيئا جميلا !

وحاولت ان اعرف : احب سرجيفتش .. أم لا ؟

ولم استطع ان اصل الى شيء.. فنمت !

وحينما اصبح الصباح ، ورأيت البقع الشمسية المرتعشة ، تنفذ الى فراشي من خلال اغصان الزيزفون ، عادت الي خيالات الامس ، وبدت لي الحياة ثرية ، منوعة، مليئة بالسحر

والفتنة ، فارتديت ملابسي على عجل ، وجريت الى الحديقة .

ثم ماذا كان ؟

لا شيء بعد .

في الشتاء ، حينما كنا نعيش في المدينة ، كان بيتر سرجيفتش يزورنا احيانا ، ان الصداقة الساحرة تكون في القرية فقط وفي الصيف ، اما في المدينة وفي الشتاء ، فانها تفقد نصف جمالها .

في المدينة كان بيتر سرجيفتش يتحدث احيانا عن الحب ، ولكن حديثه يختلف تماما عما كان في القرية .

في المدينة كنا نشعر شعورا قويا بالحاجز الذي يقوم بيننا : فانا نبيلة، وغنية ، اما هو فمستخدم فقير ، مهمته تنفيذ واجبات الرقابة القضائية لا اكثر .

شعر كلانا ان هذا الحاجز عال جدا ، وسميك جدا ، فأنا فتاة مشهورة وهو رجل خامل .

كان حينما يزورنا في المدينة يبتسم في تكلف ، وينتقد الطبقة الراقية ، ولكنه كان يصمت في تحفظ ، حينما يكون معنا شخص ما في حجرة الجلوس .

لم يكن هناك في الحقيقة حواجز يصعب التغلب عليها ، ولكن ابطال هذا العصر هكذا .. خجلون جدا ، وخاملون جدا ، يسارعون الى الايمان بفكرة انهم سيئو الحظ ، ومع هذا لا يكافحون .. انهم ينتقدون فحسب!

كنت محبوبة ، وكانت السعادة في متناول يدي ، وكنت اعيش في هدوء ، لم يكن ينقصني شيء اتطلع اليه ، ولا شيء من اشياء الحياة ارغب فيه .

وكان الوقت يمضي .. ويمضي .

ومات والدي ، وتقدمت بي السن ، ولكن الشيء الذي ظل يثير اعجابي ، ويبدو لطيفا في نظري ، ويمنحني الأمل الكبير ، هو ضجيج المطر ، وزمجرة الرعد ، والتفكير في السعادة ، واحاديث الحب .

كل هذا اصبح ذكريات !

وحينما انظر الى السهل الصحراوي المنبسط امامي ، لا أجد فيه احدا من الاحياء .. ليس في الافق سوى الظلام والرعب .

وحينما ارى الاشجار في الشتاء، واتذكر كيف اخضرت من اجلي في الصيف ، اهمس :

ـ آه .. يا لاشجاري الحبيبة !

وحينما ارى الناس الذين انفقت معهم ربيع عمري ، ينتابني اليأس ، ويسري في كياني دفء الحب ، واهمس ايضا بمثل هذا .

ويدق الجرس ..

انه بيتر سرجيفتش قد جاء .

ان بيتر سرجيفتش لم يكبر كثيرا، ولم ينحف كثيرا ، ولكنه كف منذ زمن طويل عن الاعراب عن حبه ، ولم يعد يمزح بالكلام التافه ، ولم يعد يقبل على عمله ، لقد انتابته العلل ، كما استولى عليه شعور بخيبة الامل في شيء ما ، انه يعيش على الرغم منه !

لقد جلس امام المدفأة صامتا ، ينظر الى النار ، وانا لا ادري ماذا اقول ، واخيرا سألته :

ـ والان .. ماذا ؟

واجاب :

ـ لا شيء !

وساد الصمت من جديد ، وسطع ضوء اللهب الاحمر على وجهه الحزين ، وتذكرت كل ما مضى ، وفجاة ارتجفت كتفاي ، والتوى راسي ، وبكيت بأسى ومرارة ، وشعرت بالشفقة والاسف على نفسي، وعلى هذا الرجل ، واشتهيت بكل ما في من رغبة ان اعود الى الماضي ، الى ما تأبى علينا الحياة ان تحققه لنا اليوم .

لم اعد افكر في انني نبيلة وغنية ، اخذت انتحب بصوت عال ، والطم خدي ، واتمتم :

ـ ضاعت حياتنا هباء !

اما هو فجلس في صمت ، لم يحدثني بشيء ، لم يقل لي «لا تبكي!»

لقد كان يعرف ان من الضروري ان ابكي ، وانه قد حان الوقت للبكاء .

ورأيت فيعينيه اشفاقا علي، وكنت انا كذلك مشفقة عليه ، وانتابني شعوربالضجر منهذا الخجول السيء الحظ ، الذي لم يستطع ان يبني حياتي ولا حياته .

وعندما رافقته لاودعه ، اخذ يرتدي معطفه ببطء متعمد ، وفي صمت طبع على يدي قبلتين ، ونظر طويلا الى وجهي الباكي .

لا اشك انه في هذه اللحظة تذكر العاصفة ، والمطر ، وضحكاتنا ، ونظراتي الطويلة الى وجهه ، وانه اراد ان يقول شيئا ما ، وانه كان يسره ان يتحدث .. ولكنه لم يقل شيئا ، بل هز رأسه ، وصافحني بحرارة . اما انا فودعته وداعا حارا ، وعدت الى حجرة المكتب ، وجلست على البساط امام المدفأة .

لقد غطيت الجمرات الحمراء بالرماد ، وبدأت تخمد ، وما زال الصقيع يطرق النافذة حانقا، والرياح تعزف لحنا ما في انابيب المدفأة .

ودخلت الخادمة .. ونادتني !!

القاهرة — رضوان ابراهيم

رعشة المبهم

اللوحة مغرية .. والطريق مزدحم
تقودني يد اللامتناهي المجهولة
فتضطرم الافكار المحترقة في اغواري
وتضطرم بلفحة تمر
وانا هيهات ان اهدهد آلامي

الوانها عجيبة .. تثقلني بغموضها
فتعانقها روحي
وهي لا تدري اي جمال تعانق
أهو الحب يتفجر بالوانه ؟..

أواه ... الزحام يخنقني ...
.. لقد غامت اللوحة ...

حلب — هناء طيبي

الشاعر المجدد محمود ابو الوفا

بقلم حليم متري

* * *

قبل ان أتحدث عن الجديد في شعر أبي الوفاء ، أحب ان أعلن في صراحة وقوة يقين انني من المعجبين بشعر أبي الوفاء . وليس اعجابي بشعر الشاعر شيئا جديدا . وليس اعلان هذا الاعجاب بمكانة الشاعر شيئا جديدا ايضا كما اظن . اما فيما يختص بي ، فقد سبق لي ان تحدثت عن شعر ابي الوفاء وعن اتجاهات الشاعر الفكرية يوم ان عرض لنقد شعره نقدا شديدا ، استاذنا الكبير الدكتور طه حسين في جريدة الوادي عام ١٩٣٤ ، وكان من شأن الدكتور يومئذ ان يؤرخ عن طريق النقد ادب ذلك الجيل او ادب شباب ذلك الجيل من شعر ونثر بوجه خاص ، اذا صح هذا التعريف . فبعد ان تحدث عن « الملاح التائه » و « وراء الغمام » وغيرهما ، تحدث عن « انفاس محترقة » للشاعر أبي الوفاء حديثا كان لا يخلو من عنت او عبث واكاد اقول لا يخلو من سخرية عرفت في اسلوب وتفكير اديبنا وناقدنا الكبير الدكتور طه حسين.

فقد بدأ حديثه عن الديوان بقوله : « يراه صديقنا فؤاد صروف ــ باعتباره انه كاتب تقدمته ــ وجماعة غيره من المثقفين شعرا ، وانا آسف اشد الاسف لاني لا اراه الا نظما . وآسف اشد الاسف ايضا لاني مضطر الى ان اقول ذلك واعلنه الى قراء هذا الحديث . ولو ارسلت نفسي على سجيتها لاثرت الا اعرض لهذا الديوان . ولكن ماذا اصنع وللنقد علينا حقوقه وتكاليفه الثقال » والى ان يقول : « وقد ثارت منذ حين ثائرة عن شاعر مجدد يسمى أبا الوفا له اصدقاء يحبونه ويعطفون عليه ، وله قوم اخرون يكبرونه ويعجبون به ، وقد اخذت الصحف تنشر من ابناء اولئك وهؤلاء شيئا كثيرا » والى ان يقول : « رأيت بين يدي دواوين كثيرة منها هذا الديوان الصغير الذي يسمى بالانفاس المحترقة فانكر العنوان ولا اسيغه » ثم يقول : « وانت تستطيع ان تقرأ الديوان من اوله الى آخره دون ان تظفر فيه ببيت واحد فضلا عن مقطوعة فضلا عن قصيدة يثير في نفسك هذا الرضى الذي يثيره الشعر العالي ، او يبعث في نفسك هذه اللذة التي يبعثها الفن الجميل » ... الخ ما كتبه الدكتور يومئذ مما استنفد منه صفحة كاملة هي صفحة الادب . ولعل محمودا ذلك الشاعر الكبير القلب المرهف الحس الشديد التواضع لم يكن من رأيه ان يرد على ما نشره الدكتور من نقد ، فآثر السكوت ، كما آثر السكوت مثله صديقنا الشاعر الكبير الراحل ابراهيم ناجي . ولقد علّق على نقد الدكتور يومئذ شيخ من شيوخ الادب العربي ، ولعلي لا اذيع سرا اذا قلت انه الاستاذ الزيات ، فقال : « كان اسلوب النقد ولا شك مشوبا بصلف الاستاذية وعنت الحزازة وعبث التهكم » .. « ولان الوادي قد اخذت منذ حين تفتح لادباء الشباب محضرا في كل اسبوع ، وقد تطوع للشهادة له وعليه اساتذة النقد في « الجهاد » و « البلاغ » . وكانت الحملة عنيفة على صاحبي الديوانين ، لحظهما الوافر من الاجادة ومحلهما الرفيع من الفن ، فكابد الشاعر الطبيب مبضع العقاد ، وقاسى الشاعر المهندس معول المازني . وكان الدفاع عنهما ألكن الحجة أرعن الدليل لصرفه الجهد في رد المآخذ . ولو عني بتبيين المحاسن كما عني بتبيين المساوىء لاخفى ما ظهر تحت مجهر النقد من ضآلة العيوب في بهرة الجمال وروعة الصنعة » .

ولعل الاستاذ الزيات لم يشر بالذات الى نقد الدكتور طه حسين وان كان قد الح الى الموضوع . وهكذا قدر لبعض من كانت تربطهم بالطبيب او بالمهندس علاقة ان يردوا على النقد الذي وجه اليهما . ولكني على ما اعلم لم اقرأ ردا على ما كتبه الدكتور طه حسين غير ذلك الرد الذي بعث به « كاتب » الى « الوادي » ، عقب نشر مقال الدكتور ببضعة ايام . فتفضل الدكتور بنشره في صدر صفحة الادب . ولم يكن الكاتب قد اتصل بالشاعر بعد ، وان كانا تعارفا بعد ذلك في « ندوة المقتطف » .

لست ارمي من ذكر هذه المناسبة ان ادفع اتهاما عن الشاعر.. ***فشعره يحوي من العناصر ما ينهض بقوته وجدته وروعته ــ اذا روعيت*** الذاتية والموضوعية في الشعر ، واذا روعيت وحدة القصيدة محل وحدة البيت ، واذا تبينا ان الشاعر يعبر عن خواطر متناسقة في ذهنه، وعن عاطفة متمشية في نفسه ، وان شعره تنعكس فيه روح العصر ، وهذه اشياء يحددها النقد تحديدا قاطعا . فالشاعر العظيم خالق ، ولهذا تمتاز قريحة الشاعر بقدرتها على خلق الالوان النفسية التي تصبغ كل شيء وتلونه لاظهار حقائقه ودقائقه حتى يجري مجراه في النفس ، فكل شيء تعاوره الناس من اشياء هذه الدنيا فهو انما يعطيهم مادته في هيأته الصامتة ، حتى اذا انتهى الى الشاعر اعطاه هذه المادة في صورتها المتكلمة فابانت عن نفسها في شعره القوي بخصائص ودقائق لم يكن يراها الناس كانها ليست فيها . فبالشعر تتكلم الطبيعة في النفس وتتكلم النفس للحقيقة . والانسان من الناس يعيش في عمر واحد ، ولكن الشاعر يبدو وكانه يعيش في اعمار كثيرة من عواطفه وكانما ينطوي على نفوس مختلفة تجمع الانسانية من اطرافها ، وبذلك خلق ليفيض من هذه الحياة على الدنيا كانما هو نبع انساني للاحساس يغترف الناس منه ليزيد كل انسان معاني وجوده المحدود ما دام هذا الوجود لا يزيد في مدته ، ثم ليرهف الانسان بذلك اعصابه ، فتدرك شيئا مما فوق المحسوس وتكتنه طرفا من اطراف الحقيقة الخالدة التي تتسع بالنفس وتخرجها من حدود الضرورات الضيقة التي تعيش فيها لتصلها بلذات المعاني الحرة الجميلة الكاملة . وكأن الشعر لم يجيء في اوزان الا ليحمل فيها نفس قارئه الى تلك اللذات على اهتزازات النغم ويطرب الشعر الا اذا احسسته كانما هو يأخذ النفس لحظة ويردها ــ وفي هذا يقول الشاعر الخالد « جميل صدقي الزهاوي » :

اذا الشعر لم يهززك عند سماعه — فليس خليقا ان يقال له شعر

والشعر فن ، والفن اهتزاز ، ففي قوة التعبير او في روعته ما يهز النفس والعقل جميعا . والشاعر الحقيق بهذا الاسم ، أي الذي يتمرس الشعر ويستطلع معانيه ويهتدي الى اسراره ويأخذ بغاية الصنعة فيه ، تراه يضع نفسه في مكان ما يعانيه من الاشياء وما يتعاطى وصفه منها ثم يفكر بعقله على انه عقل هذا الشيء مضافا اليه الانسانية العالية ، وبهذا تنطوي نفسه على الوجود فتخرج الاشياء في خلقة جميلة من معانيها وتصبح هذه النفس خليقة اخرى لكل معنى داخلها او اتصل بها . ومن ثم فلا ريب ان نفس الشاعر العظيم تكاد تكون حاسة جامعة من حواس الكون . والحاسة هنا هي عقل الشاعر وعاطفته وتفاعله ببيئته ومجتمعه .

وليست (١) الفكرة شعرا اذا جاءت كما هي مجردة في العلم والمعرفة، فهي في ذلك علم محض ، وانما الشعر في تصوير خصائص الجمال الكاملة في الفكرة على دقة وبراعة اداء تنم عن ذوق ، كما تتجول في ذهن الشاعر الذي يلوّنها بعمل نفسه فيها ويتناولها من ناحية اسرارها، فالافكار مما تعانيه الاذهان كلها ويتواطأ فيه قلب كل انسان ولسانه ، بيد ان فن الشاعر هو فن خصائصها الجميلة المؤثرة وكأن الخيال الشعري نحلة من النحل تلم بالاشياء لتبدع فيها المادة الحلوة للذوق

(١) من مقال للرافعي عن الشعر .

والشعور . والاشياء باقية كما هي لم يغيرها الخيال وجاء منها بما لا تحسبه منها وهذه القوة وحدها هي الشاعرية . فالشاعر العظيم لا يرسل الفكرة لايجاد العلم في نفس قارئها حسب ، وانما هو يصنعها ويحدو الكلام فيها بعضه على بعض ويتصرف بها ذلك التصرف ليوجد بها العلم والذوق معا . وعبقرية الادب لا تكون في تقرير الافكار تقريرا علميا بحتا . ولكن في ارسالها على وجه من التسديد لا يكون بينه وبين ان يقرها في مكانها من النفس الانسانية حائل . وكثيرا ما تكون الافكار العالية التي يلهمها افذاذ الشعراء والكتاب هي افكار عقل التاريخ الانساني ، او افكار تنبعث عن الموجات التي تتناول واقع الحياة الانسانية ، فلا تفصل عنهم الفكرة في اسلوبها القوي الجذاب حتى تتخذ وضعها التاريخي في الحياة وتقوم على اساسها في اعمال الناس فتحقق في الحياة المثليات والنماذج . ولا يستطيع الشاعر ان يكون مبتكرا الا اذا اثبت انه حر غير مقيد بما دان به الاسلاف .

ولقد استطاع أبو الوفاء ان يبعد عن التقليد والمحاكاة فهو لم يولع بالماضي ولم يتعلق به ولم يحن اليه لانه بروحه وتكوينه العقلي واتجاهاته الفكرية لا ينحدر الى تقاليد الاسلاف . وموروثات الماضي لهي في عرفه خباء ورسوم واطلال .

انني أفسر هذا بأن ملكة الشعر انما ترقى برقي البيئة اذا كان الشاعر متأثرا بها متصلا معها اتصالا قويا ، غير سالك مسالك التقليد او مدفوعا بدوافعه . ولقد وهبت الطبيعة « أبا الوفاء » حسن الذوق ودقة الاحساس وقوة الملاحظة والعديد من المعنويات الموهوبة والمكتسبة التي تثبت انتفاعه بما يلمح او يسمع او يقرأ وانطباعات هذه كلها مع نفسه او ما يحسه في اعماق فؤاده ومكنوناته مما يتجلى في شعره . صورة لكل نفس يتذوقها وشبحا لكل احساس ورسما لكل عاطفة وطيفا لكل خاطر ، ومتى استطاع الشاعر ان يصل الى هذا صح له بحق ان يحمل لواء الشعر ، فلا يوسم بسمة الناظمين ...

والان فانظر معي الى الشاعر عندما يقول من قصيدة «من الاعماق» :

كأنني فكرة في غير بيئتها   بدت ، فلم تلق فيها أي اقبال
او انني جئت هذا الكون عن غلط   فضاق بي رحبه المأهول والخالي

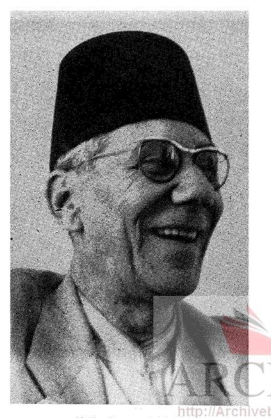
ثم استمع اليه عندما يقول :

عهد الجهالات أم عهد الحضارات   لن يبرح الناس عبدانا وسادات
فوارق ستسود الارض ما لبثت   تلك العداوة بين الذئب والشاة
لن تبلغ المجد الا ان صعدت له   على سلال اشلاء • وهامات
هذي الديانات تنهي ان يراق دم   والهدي بالذم قربان الديانات
ياليت شعريهل تلقى الخراف غدا   كبشا يغار على تلك الذبيحات
هيهات هيهات ان البهم ما خلقت   الا مطايا لاغراض الزعامات
عهد الصراحة ما بال الصريح به   لا يملك النطق الا بالكنايات
أحب اضحك للدنيا فيمنعني   ان عاقبتني على بعض ابتسامات
هاج الجواد فعضَّته شكيمته   شُلَّت انامل صُنَّاع الشكيمات

ولعل هذا الشاعر يحدد مدى تجاوب الشاعر بالمجتمع الذي يعيش فيه . أليس هو المجتمع الذي يدفع بالنفوس الى الكبت والكظم بدل البوح والتصريح ؟ ثم أليس الكظم نتيجة محتومة للصراع الرهيب الذي يتاجج في النفوس للفوارق الطبقية حيث يعيش بعض الناس في دنيا غير دنيا الناس ؟ وحيث يعيش الناس في عالم الواقع وهم « مطايا لاغراض الزعامات » ؟

ويعود الشاعر ليصف لنا بعض مشكلات هذا المجتمع فيقول في قصيدته « مواكب العيد » :

أسعديني يا ربة الانشاد   ليس مني أحق بالاسعاد
واخبريني أين السرور توارى   وتولى بفرحة الاعياد
اين ما كنت أحتلى العيد فيه   من وجوه اللدات والانداد
اينما سرت لم أجد غير هم   كامن في الثياب او هو باد
أينما سرت لا اراني الا   خائضا في اللظى وشوك القتاد



الشاعر محمود ابو الوفا

•

في بيوت العمال القى دخانا   من حريق الالام للاكباد
زفرات كأنهن قلوب   ذوبتها حرارة الاجهاد
رزقهم مرسل لهم قطرات   من «أنابيب» في يدي «عدّاد»
في بيوت التجار اسمع شكوى   وأنينا يذيب صم الصلاد
فاظن الاسواق حالت رمادا   في عيون لا تمتلي بالرماد
أسعديني يا ربة الانشاد   ليس مني احق بالانشاد
كم تمنيت ان أغرّد صوتا   خالص اللحن لم يشب بالحداد
فاجلّي الشجيّ الدفين بصدري   جائش البرق دائم الارعاد
واغنى به مفاخر مصر   وأعلّي لواءها في البلاد
وأهنّي آل الحنيفة بالفطر   وآل الصليب بالميلاد

الى ان يقول :

أسعديني فانني من عرفت   همتي في الهوى وطول ارتيادي
وافتتاني بالحسن أذرع عنه   كل قار من البلاد وبادي
لا ترى بالجمال أعرف مني   بمزايا مهاره والجياد
وبقلبي لكل حسن محل   رائع منه في محل السواد
كل حين له مزاياه عندي   وله ثم موضع بفؤادي
كيف ما مصر جاز حرمان مثلي   حين مثلي يقل في الانداد
« أحرام على بلابله الدوح   حلال للطير من كل وادي »

ثم يقول :

علم الطير ذو الجناحين أني ... ان أطر لم أقع وراء مرادي
غير اني قلمت ظفري عن الشر ... وآثرت شكة الامجاد
خلق ليس بالجديد علينا ... وسجايا تليدة عن تلاد
وانا المرء ان أعد فخاري ... كان فخري بمصر اولى اعتدادي

وهذا الشاعر هو بعينه الذي يقول :

من كان يرجو ان يداوي شعبه ... فليقتلن الجهل والاقلالا
فتشت ادواء الشعوب فلم أجد ... كالفقر داء للشعوب عضالا
الفقر مثل الجهل كان كلاهما ... جوعا وكان كلاهما اذلالا
الفقر يقتل في النفوس سموها ... كيف السمو لمن يعيش عيالا
لا تحسبوها امة قد حررت ... قوما اذا ما استعبدت اموالا
يا مصر عبدت السبيل الى المنى ... فخذي سبيلك للمنى ارقالا
هذا زمانك بالسلاح مدججا ... هيهات يترك للضعيف مجالا
سلي مكانك من زمانك عنوة ... لا تأخذيه منحة وسؤالا
في مصر ارض لا يزال ترابها ... تبرا اذا ما احسن استغلالا
في مصر جو لا يزال بخيره ... بكرا ينادي طيره الابطالا
هذى الكنوز لعمر مصر وسحرها ... هل من يفك السحر والاقفالا ؟

وللشاعر قصيدة يصف فيها « اسدا سجينا » تلمس فيها الرمزية التي تعالج بالتشبيه كما تتبين فيها وصف الهواجس غير الرمزية المليئة بالصور الغامضة التي يدق على القارىء تبيانها . فانا افهم من هذه القصيدة مدلولات الكلمات وما تحدده من معنى بل افهم فيها ما يشاء الشاعر من معاني . ومذهب الرمزيين كما افهمه يضع فيما يضع المشبه به مكان المشبه في كثير من المواضع وحذف المشبه في كثير من المواضع وحذف المشبه في كثير من المواضع ايضا كما يدخل تشبيها في تشبيه وخيالا في خيال كما قد يقتضي ايضا الاسترسال في وصف الهواجس النفسية من غير تمهيد او شرح . ويرمز الشعراء لهذه الهواجس باشياء تذكرهم بها كما انهم قد يشبهون شيئا بشيء اخر وهذا الثاني يشبه بثالث ورابع ثم يحذفون هذه التشبيهات الثلاثة الاولى خلا الرابع فانهم يبقون لفظه كي يكون رمزا للمشبه الاول . ولا شك ان هذا المذهب يتطلب ذكاء ودقة وعمق فهم وثقافة وهذه القصيدة الممتعة (الاسد السجين) تصور الى حد بعيد مدى فهم الشاعر للحرية التي ينشدها العقل الذي يعرف ان الحرية هي في النهاية تقدير للمسؤولية وانه لا تلاؤم اطلاقا بين النزعات الجديدة لفهم الحياة الديمقراطية وبين ما يعمله الحاكمون باسم القانون والعدالة من تنكيل بالاراء وبالمفكرين . وهذه القصيدة كفيلة لان تضع الشاعر في عداد « العقليين » وهم اولئك الذين يبحثون للمجتمع عن قيم جديدة بعد ان تزعزعت الثقة في منطق العقل القديم وافزع العقل الجديد تعدي الطغاة المعاصرين على القواعد المرسومة لمفهوم الحياة الانسانية والحقوق الاجتماعية .

ولعلي بعد ان ذكرت شيئا عن المنحى الذي نحاه الشاعر في ديوانه « انفاس محترقة » استطيع ان اصور المنحى التفكيري الذي نحاه الشاعر في ديوانه « عنوان النشيد » . والاتجاه التفكيري عند « ابي الوفا » بشأن الحياة وعلاقتها بالانسان لم يتغير اذ انه كما اوضحت من « العقليين » ولا حرج على الشاعر ان يستجيب لداعي العقل وللهمات التفكير ، وانما الحرج كل الحرج ان تكون درايته ومدى معرفته بالاشياء والحياة شيئا سطحيا . والشاعر الكبير كما يقول « العقاد » هو من يشعر بجوانب الحياة فنستخرج من شعره صورة جامعة لكل شيء فيها وفلسفته خاصة او نظرة خاصة للعالم كما يدركه هو وكما يراه فمثل هذا الشاعر اذا سألت عن صور الحياة عنده او عن فلسفته هو في الحياة امكنك ان تجدها مفرقة في شعره ناطقة بسعة نفسه واشتمال قريحته على كل ما حوله . وابو الوفا في « عنوان النشيد » يبشر (بسعة نفسه واشتمال) قريحته بفلسفة القوة او بدينها فيقول :

ليس كالقوة في الدنيا فضيلة ... هكذا قالت لنا الروح النبيلة
قلت : يا روحي هل ثم وسيلة ... لتلافي الضعف والضعف رذيلة
قال : الا في طموح الكبرياء ... لم اجد للضعف في الناس دواء
يا أخي : والروح يعني ما يقول ... ليس مثل الضعف في الارض فضول
استمع لي ، ان من حق الحياة ... للفتى : اما يعش عيش اله
او يمت كالصوت لم يسمع صداه

ويزيد في هذا المعنى ايضاحا فيقول :

وتغني الروح لحنا فأجاده ... قال ان الضعف والقوة عادة
من يوجه وجهه الامر اعتياده ... يصبح الامر له رهن الارادة
ان في الانسان طاقات اقتدار ... آه لو يعرفها كيف تدار
آه لو يقوى اعتدادا وارادة ... لاستقل الارض افقا للسيادة
انت يا انسان للارض الملك ... كيف لا تحكم فيما تمتلك
بينما الدنيا جميعا هي لك

ويزيد في هذا المعنى ايضاحا ، فيقول :

آدم قبلك بالارض افتتن ... فاشتراها بائعا فيها عدن
يا ضعيف الرأي اياك تظن ... انه اسرف في هذا الثمن
انه عن قوة الطبع نزع ... وللاستقلال بالملك ابتدع
لم يكن آدم مسلوب الجنان ... يوم لم يذعن لسلطان الجنان
ليس يرضى رجل حر الفؤاد ... عن حياة ما له فيها جهاد
خير ما في النفس هذا الاعتداد

وهذه المعاني الجديدة في ثنايا « عنوان النشيد » هي توجيه سديد من الشاعر الذي يفكر بعقله وعاطفته معا . والقوة التي يعنيها في بعض ابياته توحي بضرورة الوصول الى المجد الذي ينبغي ان يعده الانسان لحياته حتى تكون الحياة كاملة .

والحديث عن القوة يتناول نواحي عديدة لا تخرج في جملتها عن المعنى المجرد لروح هذا اللفظ . وقد كان ابسن يقول ان الرجل القوي هو الرجل الوحيد . وابو الوفا يبحث في ديوانه الجديد عن القوة ويعني الارادة . والارادة شيء كامن في النفس والانسان الذي يستطيع الاهتداء الى الارادة في نفسه او بالتعبير السيكولوجي في شخصيته لا يعييه انتقاء موضوع او تخير قضية لان فيه من القدرة ما يجعل من تفكيره اشياء عالية القيمة لا يرقى اليها الضعفاء . وسر هذه القدرة مودع في السجية الفنية والفطرة الخصبة التي ترتفع وتسمو بالتعليم والتثقيف . والمنبع القوي في أي ناحية من نواحي الانتاج لا يطلب منه نوع معين من الانتاج للانسانية ـ انما هو يفيض على الجماعة كما يفيض النحل بالشهد ـ دون ان نوضح له ان في عمله شفاء للناس . وشاعرنا لا يفترض ايجاد القوة في الانسان دون ايجاد الحرية في حياته وهو يتحدث في معنى القوة ولكنه يعني الارادة .

فالقوة هنا ليست غاية في ذاتها ولكنها وسيلة او هي واسطة الى غاية . وانبل غايات القوة ما يرمي الى تحرير الانسان من ضعفه . ولعل اظهر عمل للارادة تحرر الانسان من الخوف ـ هذا الخوف الذي يتسلط على النفوس البشرية فيحول بينها وبين التفكير ـ انه الخوف ذلك الجبار الذي تفرضه على التفكير اوضاع المجتمع المقلوب ، ذلك المجتمع الذي يقف على خازوق كما تقول « فرجيينا وولف » في موضوعها عن ادب البرج المائل . والقوة اذن لا تعبد على انها وثن وانما القوة هي القدرة على تحرير النفوس من الاوهام والتقاليد والمخاوف وهي القوة التي تدعونا ان نؤمن بالانسان . والايمان بالانسان هو الايمان بالحياة والعقل والواقع . ويقول ابو الوفا بلسان آدم الذي كان في الجنة قبل سقوطه ـ ما يعني مطالبة الانسان بحقه في الحياة لكي يحيي ويشعر في حياته بمعنى وجوده ـ هذا الشعور الذي يجعله يفكر في العمل والاستقرار والحرية . بل يفكر في الحياة وتطورها وفي العقل وثورته فيقول :

آدم قد قال حتى م اظل   في ربى الجنة مكفوف الامل
ليس لي في غير حواء عمل   أي وربي انه عيش ممل
سوف اختار لنفسي ما احب   سوف لا اعمل الا ما يجب
أأعيش العمر مهدور السبب
في مكان فيه ما لي أي ظل   لا واني لست بالعضو الاشل
انه لا بد لي آن اشتغل   انه لا بد لي ان استقل
او للشيطان كل الفرصة
وانا ما لي اقل حيلة
اي مخلوق انا في الجنة
بينما احيا كأي فضلة
اي وضع ذلك الوضع الحقير
انا مما انا فيه مستجير
رب هب لي حق تقرير المصير
هذه اولى واخرى طلبتي
اعطني حقي في حريتي
ثم خذ ما شئته من جنتي
ولتكن مهما تكن لي قسمتي

ثم يقول :

انه لا بد لي ان استقل   حيثما اذهب او حيث احل
سوف فيما شئته لا امتثل   غير ما نفسي لنفسي تستحل
ذا هو العيش ولا عيش سواه   ان يفتني منه اعلى مستواه
فاتني حظي من روح الحياة
سوف ارضى لنفسي اي ذل   سوف أحتال الى اني اصل
للذي اهوى وارجو من آمل   انه لا بد لي ان استقل

ودلالة الشاعر على ايمانه بالانسان تتبين في قوله :

وكذا الانسان قد ارضى اعتداده   وعلى ملك الثرى شاد عتاده
ويحه ما ضر لو اغلى رماده   واراد المجد للارض وراده
ليته وجه للارض الدعاء   مثلما وجهه نحو السماء
غير ان النفس لما استرخصت   طينها لم تعطه حق العباده
ولهذا فقدت حق السياده   دون ان تشعر ، والاشياء عاده
بينما الانسان لو شاء استعاده
آه لو آمن انسان بذاته   لاتى في الارض كبرى معجزاته
ربما كان الها في صفاته   حل منه الروح في كل جهاته
ليس للانسان الا ما سلك   فهو ان شاء تردى فهلك
وهو ان شاء اله او ملك
انه اعطى حق الاختيار   ثم ان الروح من غير انتظار
مد في الجو جناحيه وطار   قلت عدني : قال ان عاد النهار

ثم ينتقد الشاعر اسلوب الانتاج الذي يعيش فيه ناس على حساب ناس ويثري فيه فريق على حساب فريق فيقول :

عاد لي الروح وقد نحى القناع   قال: كم في الارض،كم الف اختراع
زادت الدنيا اتساعا لاتساع   مع هذا اكثر الناس جياع
أيها الناس الا من يخترع   اختراعا واحدا يشفي الطمع
ويداوي الناس من داء الجشع
اضمنوا لي الان هذا الاختراع   وانا اضمن اشباع الجياع
ليت من نادى بتحرير البقاع   كان قد نادى بتحرير الطباع

ولعل سخرية الشاعر من الذين يبشرون بالدين وهم ابعد الناس عن فهم روحه سخرية لاذعة . فقد انحدر بالدين اهله وهو يصفهم فيقول :

ورنا الروح الى حبر بطين   اكثف اللحية مدبوغ الجبين
قال : يا ستار هذا شيخ دين   واستعاذ الروح بالروح الامين
ان يكون الشيخ ابليس اللعين
ثم قال الروح : ماذا انت ناظر   هل يكون الدين للناس مظاهر
يا اخي الدين للناس بصائر   والى ان يصبح الدين ضمائر
فانا يا صاح بالاحبار كافر   ان روح الدين للارواح دين

الى هنا وقد ارتفع الروح وطار حتى ابى ان يعد بالعودة ـ واذا بالشاعر وقد اصبح رجلا عاديا . ولكن الروح لم يلبث ان عاد وكانه يعود ليحدثنا عن القوة في مظاهرها الاجتماعية ـ ويبدأ بالتعليم ـ فالتجنيد فالسلام والخلق في الفرد والجماعة .

قلت : قل لي يا اخا الروح الرفيعة   ما لزوم الدين او أي شريعة
لنفوس الناس ما دامت رفيعة   حين ان النفس مذ كانت ولوعة
بالتسامي والتعالي بالطبيعة.؟
قال : لما لا ترى النفس الوضيعة   في نواحي هذه الدنيا الوسيعة
ثم أخلوا الارض من كل شريعة
انما والنفس ما زالت رضيعة   من أب سوء ومن أم وضيعة
كيف ننسى الدين او نلغي الشريعة ؟
قلت لكنا نرى الناس الطليعة   جعلوا الدين الى الدنيا ذريعة
ولقد جاءوا بأعمال شنيعة   قال يا هذا : كفى الان وقيعة
ذاك ذنب الناس لا ذنب الشريعة
ان كل الناس للناس صنيعة   وخضوع الناس للناس طبيعة
اي داع لم يجد فيهم سميعة   قبح الله من الجهل صنيعة
انما الاديان آداب رفيعة   وهي تفسير جميل للطبيعة

ان لباب الشاعر في هذه الخواطر الشعرية هو الايمان بالانسان ومحاولة دفع العوامل التي تباعد بين الناس وحقها في حياة ديمقراطية يتحقق فيها العدل بمفهومه العام او المساواة الاجتماعية وهي ما تدعو اليه روح اي دين . ولعلي اردد مع الشاعر قوله « ما لزوم الدين او أي شريعة لنفوس الناس ما دامت رفيعة ؟ » نعم وفي مرحلة هذا الحوار الجميل بين الشاعر وروحه يدعو الشاعر الى نقض الفروق والتقاليد التي تحدث بين الناس تفاوتا في الواجبات والحقوق ودعوته هذه تعد تحقيقا للتفكير البشري الحديث . ومحور تفكير الشاعر يدور حول تهيئة العدة الذهبية عن طريق العلم لان بالعلم وحده نستطيع ان ندرس النفس الانسانية وان نصل الى سراديبها وان نحصل على المفتاح الذي نفتح به الشخصية الانسانية . نعم وبما نصل اليه كل يوم من التقدم الثقافي سننتهي الى ان نحدد ما يتصل بشخص الانسان من طاقات يستطيع استخدامها لخيره في الحياة التي يحياها . وفي نهاية هذا الحوار الشعري الممتع يسأل الشاعر عن المصير المحتوم للانسان فيقول :

لن يكون الحق ذو العرش المجيد   مغلق الابواب في وجه مريد
انما البواب جبار عنيد   ربما قد كان من ارض العبيد
افتح الابواب للعاني الشريد
ايها البواب افتح للطريد   لا تقل من انت او ماذا تريد
انه للحق قد جاء يريد   أيها البواب افتح للمريد
ها هنا يا صاح عنوان النشيد   لا تسلني الان عن بيت القصيد
أيها البواب افتح أي باب   ان روحي انساب في تلك القباب
انه في الارض مذ شام الضباب   طار حتى لاذ في هذا الجناب
وهي ذي يا صاح شرفات الرباب
افتح افتح أي باب أي باب   او فقل للروح ما هذا الغياب
او فسل ذا الروح عني لم غاب ؟   وانني لم ادر ما في يعاب
لا تقل عني اني من تراب   انما قل آه ما اغلى التراب
أيهذا الروح هل لي من جواب   هل اظل العمر ادعو لا اجاب ؟
أي غاب انا فيه أي غاب   فتنى يا روح من غير صحاب
للنمور الحرد ، للاسد الغضاب
للافاعي الزرق او زرق النياب   والعجيب الان في غاب العجاب
ان هذا الغاب يحمي بالكلاب   الكلاب السود اشباه الذئاب
ان اكن اخطات في أم الكتاب   فالذي في الغاب يكفيه عذاب

ثم يقول :

لا تقل لي في غد عند السماء سوف تلقى الروح او تلقى الصفاء
ولماذا لم يكن هذا اللقاء ها هنا في الارض ان كان لقاء
والسما والارض والكل سواء

وابتدائي كان للغير انتهاء وانتهاء الغير لي كان ابتداء
والمساواة وتحقيق الاخاء ذي هي الغاية يا روح السماء
لا . ولكن ان يكن ثم رجاء فليكن في الارض تحقيق الرجاء

ويخرج بهذا الشاعر من قضية الصراع الطبقي في المجتمع ليذهب بنا الى درس قضية اخرى هي التسليم الملحوظ بسلطان العقل ومعارضته لما بسطه الغيب من اوضاع . وهذا الشعور بالتحرر هو نتيجة حتمية لايجابية العلم . وهنا الشاعر ينادي بالمساواة في العالم ولا حاجة للانسان ان شاء ان يحيي حياة كريمة ان يلتمس هذه المساواة في العالم الاخر اي لا حاجة به الى ما يبعده عن التفكير في الواقع .

ان « ابا الوفا » يذكرني بهذه الفلسفة المبتكرة التي ولدت في مطلع العصر الحديث في القرن السابع عشر الذي اشتد فيه الايمان بشريعة العقل مع الابقاء على قدسية الدين وحرمة تعاليمه ، وكانت فرنسا في القرن السابع عشر اصدق مثال للتعبير عن هذه الظاهرة فقد كانت روح النهضة على تنافر ملحوظ مع روح العصر الوسيط لان حركة البعث قد اعلت صوت العقل الذي كان قد خبا في العصر الوسيط وسار في ركاب الوحي . فجدت الفلسفة الفرنسية في القرن السابع عشر في ازالة هذا التنافر وحاولت ان تقيم التوازن بين مقتضيات الطبيعة واوضاع الايمان الديني وكثرت لهذا عوامل التوفيق بين الفلسفة والدين . وبدا هذا واضحا في فلسفة مالبرانش وسبينوزا ولوك . والدعوة الجزيئة الحقة التي يدعونا اليها الشاعر هي ان نحرر العقل من كل سلطة تفرض عليه من خارج لكي يساير منطقه الى اقصى آماده ويذيع اراءه بالغا ما بلغ ما بينها وبين اوضاع العرف ومقتضيات التقاليد ـ وهو يرى كما يرى العقليون ان الدين باعتباره ظاهرة اجتماعية يجب ان يخضع لمنطق العقل ـ ولكن اذا ذكرنا هذا فلا نستطيع الافلات من « كانط » الذي كان ينتقد الذهن الانساني ويقول انه لا يمكنه ان يقف على كنه الحقائق لانه لا يعرف الحقائق بالذات وانما يعرف صورتها فقط .

وقد كان كانط سببا في زعزعة المادية في القرن التاسع عشر . والذي ايد كانط تأييدا علميا في هذه الزعزعة مجيء او اكتشاف نظرية التطور في منتصف القرن التاسع عشر ـ وهي وان كانت قد انكرت قصة الخليقة كما وردت في الكتب الدينية الا انها من الناحية البيولوجية ، أي من الناحية الاحيائية ، قد اضعفت الثقة بالذهن الانساني وقللت من احكامه المطلقة لانها جعلته ناقصا يتطور . وما دامت الافكار عبارة عن العلاقة بين المادة والذهن فهذه الافكار تتطور ايضا بتطور الذهن . والافكار في تطورها هذا تحمل معنى النسبية .

فالعلم غايته التقرير والتقدير وسبيله التجربة . والدين غايته الاخلاق ورسم القيم السامية لحياة انسانية كريمة . والعلم يعتمد اذن على الذهن أي على العقل المجرد والدين يعتمد على البصيرة .

والمجددون هم غالبا الذين يتبينون الاسلوب العلمي في التفكير ومن مقتضيات هذا الاسلوب اهمال الغيبيات او موحيات المشاعر والايمان بموحيات العقل . والتجديد الفكري الاجتماعي كان نتيجة لازمة للاقتصاديات الحديثة المترتبة على الانتاج الميكانيكي أي نتيجة للحياة الاقتصادية الحديثة التي غشت اوروبا في اوائل القرن التاسع عشر كما كان نتيجة لمبدأ الانتخاب الطبيعي القائم على نظرية التطور لداروين . وبقاء الاصلح من الاسس التي قامت عليها الابحاث العلمية ويستخلص من مبدأ التعقيم ـ لايجاد سلالات سليمة للانسان ـ ان الانسانية تهدف للتضحية في سبيل الاجيال المستقبلة بايجاد الرقي العقلي كحقيقة من حقائق الحياة والواقع ، مما يقتضي تغيير البيئة اذ ان كل عهد مر به التطور اقتضى وجود بيئة خاصة به . وشعر الشاعر في ديوانه ، وبخاصة في ديوانه الموسوم « عنوان النشيد » رسالة فكرية يلتمس فيها الشاعر ايجاد حياة جديدة للانسانية على الارض يتمثل فيها التحرر من الخوف والعمل بالقيم العليا ، قيم الحق والخير والشرف . وهذه القيم تنتهي بالانسانية الى المساواة . ولا مجال للطعن في منحى تفكيره لان « ابا الوفا » لم يلتمس هذا المجد المتخيل من واقع الدين وانما هو يلتمس طريقا جديدة للوصول بالحياة الى الكمال كما هو يدعو الانسان الى التفوق على ضعفه وحشد الجهد لاخضاع الطبيعة وشعره كفن يدعو الى اللذة الفكرية والمعنوية المجردة عن كل احساس غيبي بما وراء الطبيعة لانه يؤمن برسالة الحضارة التي تتوسل بالعقل العلمي لتزويدنا بمختلف اسباب النعيم المادي ثم تستعين بالفن على امتاعنا بجمال الاشكال والعواطف في حدود ذلك العقل العلمي دون الاستطراد بالفن حتى يتجاوز هذه الحدود ويتطلع الى ما وراءها من قوى روحية غامضة مجهولة . وبالنسبة للفن بوجه عام ليست هذه الدعوى التي يدعوها « ابو الوفا » جديدة ولكنها جديدة بالنسبة للشعر المصري ـ واكاد اقول جديدة بالنسبة للادب المصري ولكنها ليست جديدة على اية حال بالنسبة الى الادب الغربي . فلقد عرفت الفنون في اوروبا هذه الدعوى . فلقد كان فنانو اوروبا يستوحون المسيحية اخيلة لهم الى ان جاءت الثورة على الكاثوليكية التي تزعمها لوثر وكالفن والى ان جاءت الثورة الفرنسية وتزعمها فكريا روسو وفولتير وغيرهما من « العقليين » وتولى العقل تنظيم الشرائع والمبادىء والاخلاق ففصل الكنيسة عن الدولة ولم يعد لوحي الدين في الفنون اثره الاول . ثم اقبل القرن التاسع عشر تتقدمه الثورة التي قامت بها الالة فتأثر الفن بالجو السائد وبدأ يفتر الوحي الديني . وبدل ان يستوحي الفنانون الدين مادة لفنهم خضع وحيهم لسلطان العلم والعقل واكتفى الفن بتصوير الاشكال والعواطف تصويرا هو في نفسه الواسطة والغاية . فالمصور يفتن عقليا في ابتكار تخطيط جديد للاجسام والاشكال « كبيكاسو » ، والموسيقي يفتن عقليا في تصميم هندسة جديدة للانغام « كساتي » . والروائي يعمد الى تحليل الميول والنزعات والاهواء كمارسيل بروست . والشاعر يفتن عقليا لابتداع اوزان جديدة واخيلة مستحدثة مما يراه ويحسه من تغيير في اسلوب الحياة ـ ومعنى هذا انهم يستعينون بالعقل لتجديد الاطار الخارجي للفن ـ وليس معنى هذا انه لا اثر للجانب الروحي في هذه الفنون . كلا اذ المصور الحديث والموسيقي والشاعر والروائي يطمح الى احداث اثر روحي بالغ ولكنهم يحسون الاثر المادي القوي في حياتهم وان العقل العلمي المحلل المتزن لا تروقه العواطف التي تنبعث عن مبالغات وعقائد غيبية ولهذا فهم مضطرون الى ان يدرسوا النفس على ضوء العلم وهم عن طريق الاساليب العقلية العلمية البحتة يحدثون ذلك الاثر الروحي الجديد الذي لا يرمي الى تحريك العواطف الانسانية المشتركة بل الى الاشعار بضرب من اللذة العقلية الفكرية التي تحسبها النفس خارقة والتي تحمل غايتها في نفسها . ونحن عندما نتكلم عن حاجة الفن الحديث والادب الحديث الى « الروحانية » لا نقصد بذلك انه في حاجة الى الدين كما كان يفهمه قدامى الفنانين او الكتاب من انهم لا بد ان يتأثروا بمذهب ديني شائع يستوحونه نظرتهم الى الحياة كي تتوافر في فنونهم عناصر الانسانية ـ لا وانما الذي نقصده ان يكون للفنان احساس ديني بمعنى الوجود ـ هذا الاحساس الديني يدعو الفنان الى ان يفكر في الجمال وهو مشرئب البصر نحو المثل الاعلى وان يؤمن بمقدرة البشرية على التفوق على نفسها وتحقيق المثليات . واذا ذكرنا الادباء الذين تتمثل فيهم هذه النزعة التقدمية نجد « طاغور » شاعر الهند المتصوف الذي يؤمن بوحدة الوجود وارتباط مظاهره بقوة خير ترمز الى مثل اعلى ، ورومان رولان الكاتب الفرنسي و هـ. ج. ولز الذي كان يدعو الى ايجاد حكومة عالمية لخير السلم وتقريره . وانا من القائلين بأن للفنان ان يؤمن بأي عقيدة على اساس ان تكون انسانية تلوح للبشرية بأخيلة رائعة بعيدة يتطلع اليها الناس ويشعرون انها

مكملة لحياتهم وانه لا قيمة للحياة الا بالتطلع اليها ومحاولة تحقيقها

ومهما يكن من شيء « فأبو الوفا » في شعره الجديد (٢) صاحب محاولة جديدة في التصوير الشعري هي محاولة جديدة في التفكير ايضا لعلها تخالف محاولات المقلدين من الشعراء الحديثين . فأبو الوفا تلمس اصالته في اللغة واضحة قوية . وهو دون شك قد اطلع على الادب العربي القديم من مصدره . وهو دون شك قد وعى اشياء من الادب الاوروبي الحديث منقولا من مصادره الاصيلة . ولعل الشاعر قد افاد ، كثيرا في زياراته الثلاث لاوروبا . ومن هنا نرى شعره الحديث يحمل الصراع بين الواقع والمثال ويتميز بالعمق في التعبير عن الحياة . وهو صورة واضحة لتفاعل وجدان الشاعر مع الحياة ، وهو اذن تجربة فنية صادقة . ان الشاعر في « عنوان النشيد » ناقد للمجتمع وموجه له . والاديب الصادق من كان دليل زمانه الى ابعد من زمانه ، ومهمته في هذا العصر محاولة بناء عالم جديد ارحب واجمل بكثير من عالمنا المتداعي المتهدم ـ هذا العالم الذي يصفه الشاعـر اللبناني الكبير ميخائيل نعيمه فيقول عنه انه تهدم وتكاد انقاضه تسحقنا سحقا وعلينا نحن رجال الادب ـ ولا عدة لنا الا الفكرة او الكلمة ـ ان نطلقها مشحونة بالصدق والعمل والمحبة منزهة عن الغوض داعية للايمان بالانسان بعيدة عن الشك والخوف والتردد والعمل نحو التجديد الفكري ـ والتجديد في الفكر معناه التجديد في الحياة وهو بذاته التجديد في الادب .

يقول مطران عن التجديد في الشعر ـ « اريد ان اخرج من الابتذال والا اطرق ما طرق الف مرة لاعيش به عيشي في زماني واباري واجاري اسمى ما تضعه قرائح اعاظم الادباء من الاجانب الذين اصبحت على اتصال روحي وذهني دائم بل غير منقطع بيني وبينهم .

اريد ألا اشهد الايات البينات يتحفني بها عصري وانا كانني بمعزل عنه ولا شغل لي ازاءها الا ان ارجع بعقلي الى ما كان لالف سنة خلت وان احس كما احس الناس في هذه الحقب والا اكـون اذا قدمت وادمجت شيئا من محدثات ايامي في كلامي المصبوب بقوالب تلك الايام كمن جرؤ جراة شبيهة بالكفر وكمن يكلف الامة العربية من الهمة لمجاراة زمنها ما هو ضد طباعها ـ وخلاصة منهبي هو ان نستنكر كل ما في مفردات اللغة وتراكيبها واساليبها السليمة الفصيحة وان نمثل المادة تمثيلا ثم نحملها وهي مصهورة الى العقل فنفكر ونبتكر ، والا فان لم يكن الشاعر الا حاكيا لغيره فما حاجة الناس اليه والسابقون افصح منه لسانا وابلغ بيانا واقدر على التصرف في اللغة الطبيعيـة التي اخذوها بالرضاع .

اريد ان يكون شعرنا مرآة صادقة لعصرنا في مختلف انواع رقيه » .

والجديد الذي يمليه الشعر في « عنوان النشيد » هـو الترابط الذهني في هذه الملحمة من اول بيت فيها الى اخر بيت . هو الاحساس الذي يحسه القارىء بحركة غير عادية تهز فكره هذا . وهذا الاحساس او على التدقيق هذه الهزة تقلقل في اعماق باطنه صورا مستكنة لم يكن من السهل بغير هذا الحافز القوي ان يثيرها ، وهي تجعله فـي النهاية يرى بعين جديدة ما لم يكن يراه من قبل ـ أي ان الافاق تتسع امامه فيرى حياة اعمق ودنيا اشمل ـ ومصدر هذا كله التعمـق في المعرفة . وكما نتعمق في المعرفة يجب ان ندور مع الحياة . ولا بد من ان يتطور العقل وعندما يدور العقل في طريق التطور نرى جوانبنا متعددة ، وعند ذلك تدعونا الحياة الى المزيد من الحرية التي يتطلبها العقل كما تدعونا الى المزيد من حمل التبعات . ولقد عرفنا النحـو النقدي الذي احتوته هذه القصيدة الممتعة القوية وهو « اتجاه » جديد في الشعر يدعو للكفاح اي للتفكير في رقي الانسان والمجتمع .

---

(٢) وديوانه الجديد الموسوم « شعري » يضم صفوة ما نظمه

القاهرة — حليم متري

الاديب





لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية
للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي
٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي
في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي
٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار :

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى
في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنى

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ — المنزل ٢٢٥١٣٩
Tél. Direct : 223819 — Dle. : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ـ لبنان

المسرحية وايحاءات التعبير

بقلم خالص عزمي

* * *

كل عمل فني اصيل يحتاج الى ادوات ذات قيمة لكي يرتفع بنيانه ويصبح ذا اثر في الاذهان . والمسرحية بما فيها من تركيب عملي وشكلي تعتمد كليا على الجانب الايحائي في التعبير : ولهذا فان اللغة هنا عملية خلق متطور لهيكل المسرحية والمفهوم العضوي لنحوها في الذهن ، سواء بما تجيىء به من افكار او تتلاعب من الفاظ .. على ان اللغة هنا لا تعني إجترارا لمعنى الكلمة ـ مجرد كلمة ـ حتى لو كررت الف مرة في الحوار ، بل يكون انطلاقها وحياتها معتمدا على التركيب الحواري للجمل من جهة ، وما يلونه صوت الممثل ايضا وذلك بموجب تخطيط هندسي فني يضعه الكاتب لمسرحيته ويجعل من الحوار كل مادة عملية سريعة لايصال الفكرة الى المشاهدين. وهذا يعتمد بالدرجة الاولى على الاخراج او الطريقة التي يتبعها المخرج في تيسير ايصالها على ذلك النحو . هذا في المسرحية التي تشاهدها ، اما في المسرحية الذهنية فقد تصبح على عمقها ، اسهل للفهم من تلك التي نشاهد حيث تتلاحق المناظر ويلهث الحوار . اذ ان استيعاب المسرحية الذهنية يتصل ويتأكد بتكرار التفكير بالمعنى والتركيز على الجوانب الغامضة فيه : وهذا ليس قاعدة في كل الاحوال اذ ان تحريك وحدات ومجاميع الحوار ككل في المسرحية عمليا يؤدي الى توضيح افكارها ايضا ، اذا ما كان كاتب المسرحية فنانا يعرف كيف يجعل من مواد الحوار ادوات مطواعة بين يديه يخلق منها ويبدع عوالم من الافكار والمتعة في آن واحد ، بأسلوب فني غير ممل وفي اطار من تعبير ، يظهر لاول مرة كأنه عادة مجردة الا انه واقعيا ذو ايحاءات بعيدة ، يصبها المؤلف بأسلوب فني منسق مدروس ، ليس للعفوية ان تجد لها منفذا فيه ، وعند هذا الناتج تكون المسرحية قد استطاعت عن عمق واصالة في الفن ان تؤدي مهمتها بيسر لا تعقيد . وهذه المهمة صعبة ، اذ فيها يتكامل واجب السيطرة على مجموعة حية من حواس المشاهد او القارىء ، وعند ذلك يتحور او يتحول مجموع العمل المسرحي الى ايحاءات تعبيرية متعددة الجوانب ، تتركز بصورة مباشرة على الحوار المترابط ، حرفا وكلمة ، وجملة ، وحركة ، سواء اتت عن طريق الالقاء او الهضم الذهني لذلك الحوار .

من هنا نستطيع ان ننفذ الى تلك الرابطة الواسعة بين المؤلف والمشاهد او القارىء ، بحيث كل ما تلتقط الاذن او العين يتحول في الذهن الى محاكمة عقلية سريعة ، تعتمد كليا على قابلية الشخص في تقبل الحوار والخروج منه الى ما يوحي ، غير مرتكز على الذوق او رنين الجمل، وبلاغة الاسلوب فقط ، بل يروح الى اعماق الايحاءات البعيدة ليجعل منها مادة تكيفية لمفهوم المسرحية ، بشرط ان لا يخرج عن اطار فكرتها العامة .

واود ان لا يتصور ان التركيز على جملة او تعبير او مقطع من حوار غير مهم جدا ما دام استيعاب المسرحية ككل يؤدي الى الغاية .

ان هذا خطأ شائع : ان لكل جملة من الحوار استقلالا ذاتيا اذا ما كملت غايتها ، ولكن علينا عند الانصات او القراءة ان لا ندع هذه الجمل تفر عن اطار المسرحية ، اذ نكون بذلك قد هدمنا ركنا عظيما من العمل الفني وهو الحوار واحلناه الى مجرد اختصار كسول لفكرة المسرحية بشكل عام : اذ ان في الحوار والاسلوب الفني لا في الفكرة فقط يكمن نجاح المؤلف وطاقته في السيطرة على جزئيات المسرحيةحتىينتهي بها الىالفكرة الموسعة التيبهدف اليها.

هناك امثلة هائلة في الادب المسرحي على ما قدمنا ، ان الافا من المسرحيات منذ آريون واسيخلوس وسوفوكلس حتى يومنا هذا تستطيع ان تعطي صورة واسعة واضحة للايحاء التعبيري في المسرحية . ففي اوديب لسوفوكلس نقف عند هذا المقطع الوصفي الرائع حيث يقول اوديب باضطراب « ايها السحاب المظلم ، يا للسحاب البغيض الذي صب علي ، يا للسحاب الذي لا يوصف ولا يقهر ولا يتقي ! واحسرتاه ! نعم واحسرتاه ! بأي سنان يطعنني الالم والذكرى » .

كم صورة متلاحقة نستطيع ان نلتقط من هذا التعبير ، ان الاوصاف هنا بعيدة وايحاءات التعبير ابعد ، وهي تشير الى الالم والشكوى والخوف والقلق ، ان كلمة واحسرتاه : فيها صوت هادر اسود للنوم ، وفيها هزال وتداع لطاقة انسانية كبرى كالتي يمتلكها اوديب ومن هذا التعبير تستطيع أن تدع العشرات من الايحاءات بسهولة اذا ما دققت المعنى وفكرت فيما كانت عليه نفسية اوديب حينما برز في قوله جانب الحسرة والرعب .

وفي مسرحيات الادب الفرنسي في القرن السابع عشر يظهر فن المسرحية وعلاقته بالتعبير الموحي بوضوح اكثر حيث يستغرق الحوار الطويل وقتا ويعطي فرصة لان تكون التعبيرات اكثر شمولا ووضوحا . في فيدر لراسين نجد الخوف والقلق الذي تحدثنا عنه في أوديب يظهر هنا بسيطا واستعطافيا ، ولكنه عميق يدل على التحسس بالغضب وضعف القدرة على مجابهة القوة الضخمة : هذه تتضح في جملة بسيطة دعائية على لسان اونون حيث يقول : « ايتها الالهة القادرة على كل شيء لتطفىء دموعنا غضبكم » .

ان علاقة فن المسرحية وكتابتها وما تلمح اليه وبصورة

خاصة المسرحية الذهنية ، بالمسافات البعيدة للتعبير وايحاءاته ، تبرز في مفهوم التشديد والتأكيد على فكرة ما تكون مهمة للغاية في نظر المؤلف وتستطيع الصياغة « التكنية » البارعة للمسرحية ان تبرزها في جوانب متعددة منها . المثل الذي نورده هنا هو ليوجين اونيل حيث يأتي على لسان (اندرو) في مسرحية (ما وراء الافق) ليعطي فكرة ذات تركيز ، لها معالم الحوار الايحائي الذي يبقى صامدا في الذهن ولا ينسى . يقول اندرو (نحن نسمي هذه مزرعة .... ولكن يجب ان تسمع عن المزارع هناك .... عشرة اميال مربعة بينما مزرعتنا لا تزيد على فدان .... انها بلاد جديدة تبدأ فيها المشروعات الكبيرة . انني اود ان اعمل عملا ذا اهمية قبل ان اموت ....) ان اندرو هنا رجل طموح ، هذا هو المظهر الواضح من التعبير : ولكن المسافة الابعد له تذهب وتضرب الهدف الحساس فيه ، وهو اقتناص الوقت ، والغائية الواسعة قبل الموت وما يلعب فيها خيال التملك وعدم القناعة . واذن هنا يؤكد المؤلف على تحديد معالم شخصية اندرو الطموحة ، ومن ثم يؤكد على ان للطموح الانساني لا تحده مزرعة متواضعة يعمل بها فلاح يريد ان يعيش ، بل تتعداه الى هدف اوسع ، ولكنه في نفس الوقت لا يخرج على نطاق النوع . وهو هنا (مزرعة اكبر) . في مسرحية (الافواه اللامجدية) لسيمون دوبوفوار تقول كلاريس (لقد عشنا ثلاثة اشهر كأننا غريبان ، ولم نشعر لذلك بأي عذاب فما جدوى ان نلتقي بعد ؟ ويجيبها بيير : كان خيرا لنا اننا لم نتعذب ، فلو ان غيبتك قد حفرت فراغا في نفسي ، لو ان صورتي اخفت عنك العالم لكان ينبغي لنا حقا الا نلتقي بعد) .

هنا يظهر المفهوم البعيد واضحا ، ولكن بالسهولة التي تتصور لاول مرة ان طاقة من التفكير يجب ان تستنفد لكي نلاحق دقة المعنى وسبر اغواره : فهناك كلمات متناثرة (عذاب . فراغ . لقاء . عالم) ومنها تتجمع مساحات واسعة من الايحاءات وبعدد هائل من الخيال في جمل (فما جدوى ان نلتقي بعد) و (فلو غيبتك قد حفرت فراغا في نفسي... لو ان صورتي اخفت عنك معالم...) هذه الموجات ذات الزخم الغزير في الايحاء تبرز في اللوحة الفنية بصورة اختفاء العالم عن ناظر الانسان حينما تحب فاذا صورة من يحب هي كل شيء امامه ، ولكن موحيات الجملة هنا تتصرف ايضا الى ابعد من ذلك ، الى ما توضحه جملة وحركة مسرحية اخرى هو ما تأتي به المعاني في تعبير (لكان ينبغي لنا حقا الا نلتقي ... بعد) وكلمة (بعد) فوق كل ذلك ذات وقع معبر ومركز .

من كل هذا يمكن لنا ان نربط بين ما يبغي المؤلف من وراء تعبيراته التي يشدها الى الفن بقوة وعمق رباط الحوار الفني وتحريك شخوص المسرحية في اطار من التناسق بين اسلوبها الثمين وفكرتها التي تدعم مفهومها ككل وتقوية . وعند ذاك تبرز ــ طاقات ابداعية وغائية وتخرج من محيط التعبير الخاص بكل جملة من الحوار الى مجالات الايحاء الواسع، وهذا يقتضي ممن تصل اذهانهم المسرحية، قابلية وتهذيبا مسرحيا خاصا لتقبل ما يهدف اليه الحوار المدروس .

والكاتب المسرحي الناجح لا يهدف في سبيل خلق موحيات ضخمة التعقيد واضفاء مسحة الرهبة والغموض على عمله الفني ، بل أن فنه ينصب ، لا شك ، على خصوبة المعاني كذوات حية ، وعلى البيان المشرق واللغة المتينة ، بحيث يجعل من المقطع الكامل لاي جزء من الحوار ، وحدة قائمة بذاتها من جهة ومرتبطة بالتعبير العام اجمالا بنفس الوقت ، وبذلك تضمن حياة المسرحية فتخرج من التحديد الخانق الى عالم فسيح من الابداع ومجال بعيد للخيال والايحاء .

بغداد — **خالص عزمي**

اشباح النور

تسير ... ايام تسير ...
وكأنها تقف في مسيرها ،
وانا اسير ... لا اشعر بها تقودني او اقودها !

كالوردة ترى شوكها غريبا عن اريجها ،
وارى انا في شوكها اريجها ،
وفي اريجها شوكها !

كالغابة ترى انها زئير اسد وشراسة نمر ،
وانا ارى في زئيرها وشراستها
اشجارا جبارة باسقة تنمو للحياة ،
تحت نور الشمس وعين الليل تمجدها !

واغمض عيني وافتحهما ،
فتلفني الاشباح ، تمشي بي ، واسير معها !
وتضحك لي الوردة.. تغرز في قلبي اشواكها،
ويطوف على انفي اريجها !

وتهزأ الغابة..تغرس في نفسي هديرا وزئيرا !

ارنو الى نور الشمس .. في لهفة وحسرة
ابتهل الى الحياة ، تنمو فيَّ فامجدها !

وعلى مشهد من شعاع النور
تلفني الاشباح والفها !

حلب — **توفيق اليازجي**

الاغنيـة المرحـة

قالت دعها
دع اشجانك تستلقي فوق غدير
قل لي كيف يغني هذا العصفور
قل لي عن اول انسان ذاق القبلة
زحزح من عينيك الجبل الازرق
جبل الحزن الصخري المائل في عينيك
لكأن الدنيا ضاعت من كفيك
وكأنك انت خلقت العالم
ولهذا جئت لتحمل همه
قل لي من ذا يحمل همك
دع اشجانك ولتنشدني اغنية مرحه

يا سوسنتي حقا لم اخلق هذا العالم
لكني عانيت عذابه
احمل في عمق الاعماق ترابه
اقسم اني لا اعشق هذا الحزن
اكرهه اكره كل الماء الآسن
لكن يا سوسنتي لو كنت اتيت الى قريتنا
لو كنت رايت جنازة ازوريس
كل القرية كانت تبكي نعشا اخضر
كان ربيع القرية يرحل
بالجذور الاشجار العارية هنالك كانت تتوسل
ازوريس الاخضر كان يضيع في الانحاء
الفجر هنالك لم يعزف لحنا
الايتام وما اكثرهم ذابوا حزنا
ما اكثرهم بعدك يا ازوريس
ما اكثر اشجار السنط السوداء
الينبوع الفجري اللون توسل يطلب ماء
وبضفة نهر يبدو اكثر حزنا
كانت ايزيس الحائرة الثكلى
تندب قالت « لم تعبر شمس افقا منذ تولى
منذ رحلت بعيدا يا ازوريس الاخضر
يا روح القمح بسفح القرية يا ينبوع الماء
ما زالت ايزيس الثكلى تحمل همك
تنشر في ضفة كل قناة رسمك
ما زالت ارضي حبلى
جوعى تحلم بك
لكنى لن اترك اشجار الصبار بأرضي
لن اتركها تنمو
كالاجنحة الليلية فوق الموتى
لن ازرع يأسا في اي طريق مهما اتمزق
اعرف ان اليأس
ثقوب في اعماق الزورق
وستأتي انت قريبا من بين الغاب
كي ينطلق الينبوع بمائه
وستأتي كي ترحل اشجار السنط السوداء
كي تعبر تضحك شمس فوق الوداي
عد لي يا ازوريس الاخضر
عد لي فك حناجر كل الطير
كل جذور الوادي تشكو
جذر يبكي جذر
عد لي سوف نهز بأيدينا
هذا الكون الاصفر
القرية بعدك بيت ليتيم مقفر
عد لي كي ينبت قمح
ليتامى هذا الوادي
ما اكثر ايتام الوادي بعدك يا رب الارباب

يا سوسنتي ما زالت ايزيس الثكلى تتوسل
وتظل على طول الشاطىء ترحل
باحثة عن ازوريس
سائلة عنه الغاب واشجار الصفصاف المطرق
منذ رايت الجبل الازرق في عينيها
جبل الحزن الاشيب
وفؤادي لا يعرف كيف يغني كيف يحب
لكن اقسم يوم يعود العام الاخضر
يوم يعود لايزيس اله الخصب
فلسوف اقدم قلبي قربانا في مجمرة الحب
اما الان فعذرا يا سوسنتي
من اجل الدمعة في عيني ايزيس الثكلى
من اجل الغائب ازوريس
لست اطيق اغني يا سوسنتي الفرحه
لست اطيق اغني
من اجلك وحدك اغنية مرحه

القاهرة — **محمد ابراهيم ابو سنه**

الاخوة كارامازوف لدوستويفسكي

بقلم دافيد ماغارشاك

ترجمة يوسف عبد المسيح ثروة

* * *

بدأ دوستويفسكي كتابة « الاخوة كارامازوف » اعظم قصصه وآخرها في حزيران ١٨٧٨ وانهاها في تشرين الاول ١٨٨٠ اي قبل وفاته بثلاثة اشهر تقريبا .

كتب (المؤلف) الى الشاعر الناقد ايفان اكساكوف في ٢١ ايلول ١٨٨٠ قائلا : « لا يمكن ان تتصور كم انا مشغول الان . انا اعمل جاهدا ليلا ونهارا . نعم اكاد انتهي من آل كارامازوف وانني اعيد في ذهني العمل الذي اقدره تقديرا عاليا ، لان فيه الكثير من نفسي . وانا كالعادة متضايق كثيرا حين اعمل ، لان العمل يؤلمني ويزعجني . وانا ازن الان ما دار في ذهني مدة ثلاث سنين وما انا كاتبه . ان هذا يجب ان يكون ، اي انه يجب ان يكون على احسن ما في قدرتي من طاقة ... حان الوقت ليكمل ويكمل من غير اي تأخير ... مرت علي ثلاث سنين وانا اكتب ، وعلى الرغم من ذلك فانني اعيد كتابة بعض الفصول مرات عديدة .. اكتب ثم ارفض ما اكتب ... ان الفقرات الموحى بها وحدها تأتي الوجود (جاهزة) اما البقية فتحتاج الى شغل مرهق ليس بالقليل .. »

والواقع كان دوستويفسكي يردد موضوع قصته الاخيرة في ذهنه مدة اطول من ثلاث سنين . ان كل فرائده الاربع قصص تتناول القتل ولكن كلا منها تعالج مظهرا مختلفا من مظاهر الجريمة . تدور « الجريمة والعقاب » حول فكرة مؤداها : هل يمكن تبرير قتل عجوز شريرة شمطاء ومرابية خرقاء من اجل اعانة تلميذ فقير لكي يدرك مستقبلا لامعا ؟

تعالج قصة « الابله » القتل على انه نتيجة لعاطفة حيوانية على طرفي نقيض من المثل المسيحي الاعلى ، مثل الغفران ، بينما سبب القتل في « الشياطين » سبب سياسي ، اما في « الاخوة كارامازوف » فجريمة القتل جريمة شنيعة ، وهي قتل الوالدين (او احدهما) .

ويبدو ان الموضوع مارس تأثيرا اخاذا على دوستويفسكي منذ الطفولة . كتب الى مراسل من « ستارايا روسا » في ١٨ آب ١٨٨٠ ، وستارايا هذه هي مصيف دوستويفسكي كتب قائلا : « كنت صبيا في العاشرة حين رأيت مسرحية شلر « اللصوص » . وليس لي الا ان اوكد لك ، انه من ذلك الحين تأثرت اعظم التأثر بما رأيت ، وهذا الانطباع القوي لا يزال يثمر ثماره في تطوري الروحي » ... تقول انئا زوج دوستويفسكي في مذكراتها : ان زوجها بينما كان مشغولا بكتابة الاخوة كارامازوف اعاد قراءة « اللصوص » وذات مرة قرأها بصوت عال لعائلته . ومن المعلوم ان مسرحية شلر تعالج موضوع قتل الوالدين والمنافسة بين اخوين .

يدخل دوستويفسكي هذا الموضوع في القصة من بدايتها ، بالاشارة المباشرة الى مسرحية شلر . يحدث فيودور كارامازوف الاب زوسيما مشيرا الى ابنه ايفان فيقول : « ابني هذا هو كارل مور الجديد بالاحترام الكثير ، بينما ابني ديمتري الذي تراه داخلا هو الذي اشتكيه اليك طالبا عدالتك ، انه فرانزمور غير اللائق باي احترام. وكلا الشخصيتين من شخوص شلر في مسرحية اللصوص » ... لقد اخطأ الرجل العجوز : فايفان وليس ديمتري ، شأنه شأن فرانزمور ، هو الذي تآمر على والده واحب خطيبة اخيه الاكبر .

ومع ذلك ، يبدو ان صلة قوية تربط بين مصدر الاخوة كارامازوف وماضي دوستويفسكي . ذلك انه اثناء حبسه في سيبريا التقى برجل كان يقضي عشرين سنة من السجن بسبب قتل احد والديه ، وهو الذي امده بالفكرة الرئيسية لعقدة قصته الاخيرة وهو يحدثنا عن هذا اللقاء في « بيت الموتى » العمل الادبي العظيم الاول الذي كتبه بعد عودته من سيبريا . كان السجين القاتل كديمتري كارامازوف ملازما متقاعدا ، اسمه الينسكي ، وفي المسودات الاولى من الاخوة كارامازوف يقترن اسم الينسكي مع كارامازوف . اما في الفصل الاول من بيت الموتى الذي ظهر في مجلة الزمان سنة ١٨٦١ ، وهي المجلة التي كان ينشرها مع اخيه الاكبر ميخائيل ، في هذا الفصل يعطينا دوستويفسكي هذا التقرير عن التقائه بالينسكي : « ثمة قاتل لابيه لا استطيع ان انساه ابدا . كان من اسرة نبيلة المحتد ، عده ابوه ذو الستين سنة ابنا ضالا عاش حياة صاخبة وتردى في ديون ثقيلة . حاول والده ، ما وسعته قدرته ، ضبطه واقناعه بتغيير مسلك حياته . غير ان اباه كان يملك ضيعة وكان مشهورا بانه كان يملك مالا ، وعلى ذلك قتله ابنه ليرث هذا المال . لم تكتشف الجريمة الا بعد شهر . وقد اخبر القاتل الشرطة بان اباه قد اختفى ولا يعرف له اثرا . قضى الابن ذلك الشهر بافظع ما يكون من التحلل والفساد . وفي النهاية اكتشفت الشرطة الجثة . اكتشفتها في مجرى للمياه القذرة يمتد تحت ساحة البيت .. كانت تغطي الجسم البسة منتظمة معني بها ، وكان الراس الاشهب مقطوعا وموضوعا بجانب حقيبة وقد وضع القاتل وسادة تحت الراس . لم يعترف الجاني ولكنه انزل من مرتبته وحكم عليه بالاشغال الشاقة لمدة

عشرين سنة في سيبريا . كنت اجده مرحا كلما تحدثت اليه . كان مشوش العقل ، لا تفكير له ، انسانا بعيدا عن التعقل كل البعد ، دون ان يكون مجنونا . انني لم الحظ قط اي عرق من عروق القسوة فيه . كرهه السجناء لا لجريمته ، الجريمة التي لم يشيروا اليها قط، بل لرعونته وعدم استطاعته من تدبير اموره بصورة منتظمة . تكلم معي احيانا عن والده . وذات مرة تحدث الي عن البنية السليمة ، وكيف انها من ميزات اعضاء اسرته واضاف قائلا : « ان ابي ، كما تعرف ، لم يشك من صحته الى يوم وفاته . » طبيعي ان هذا التحجر الوحشي شيء شاذ ، انه ظاهرة وثلمة في الكيان الانساني ، وهو تشويه جسمي واخلاقي لا يزال مجهولا لدى العلم ، وهو ليس محض جريمة . والواقع انني لم اعتقد بهذه الجريمة . غير ان اهالي بلدته الذين لا بد ان يعرفوا كل التفاصيل عنه اخبروني عن كل شيء حول المسألة . كانت الوقائع من الوضوح بحيث لا يمكن الا الاقتناع بها . » يختتم دوستويفسكي تقريره قائلا : استرق السجناء السمع اليه ذات ليلة وهو يصرخ في نومه : إمسكوه ! امسكوه ! اقطعوا راسه ، راسه .

وفي عدد تال من الزمان نشر دوستويفسكي التصحيح التالي في ملاحظته قبل الفصل السابع من بيت الموتى : « في الفصل الاولى من بيت الموتى قلت كلمات قلائل عن انسان قاتل لابيه ... وقبل عدة ايام تسلم محرر الزمان اخبارا من سيبريا مؤداها ان الجاني كان على حق في كل ما قاله ، وانه قضى عشر سنين من السجن تجاه لا شيء فعله ، وقد اعلنت براءته رسميا ، عثر على المجرمين الحقيقيين فاعترفوا بجرمهم واطلق الانسان التعس من السجن . ان المحرر ليس له من الاسباب ما يحمله على الشك بهذه الاخبار .. ليس لنا من مزيد القول ما نضيفه . ولسنا بحاجة للاسهاب في ذكر الاهمية التراجيدية لهذا الواقع ، ولا عن مصير الشاب الذي تحطمت حياته من هذا الالتهام المريع . ان الحقيقة لا تحتاج الى تعليق : انها تتكلم بنفسها « . واذن كان الينسكي خطأ من اخطاء العدالة وهذا هو الموضوع الرئيس في قصة دوستويفسكي الاخيرة .

ومع ذلك فموضوع قتل الابوين خطر على بال دوستويفسكي بعد مدة طويلة من تخيله لفكرة كتابة قصة هائلة ، هي الاخوة كارامازوف التي تتناول موضوعا عظيما آخر هو الالحاد ووجود الله . ناقش دوستويفسكي هذه الفكرة لاول وهلة في رسالة ارسلها الى الشاعر ابولون مايكوف من فلورنسا في ٢٣ كانون الثاني ١٨٦٨ ، اي قبل عشر سنين من بدايته لكتابة الاخوة كارامازوف كتب دوستويفسكي قائلا : « في ذهني الآن قصة هائلة تحت عنوان الالحاد (بالله عليك ، ليبق هذا سرا بيننا) وقبل ان اجلس على الكرسي استعدادا للكتابة علي ان اقرأ مكتبة كاملة من الكتب دبجها ملاحدة وكاثوليك وارثوذكس . ولن ينتهي هذا الكتاب الا بعد سنتين ، حتى اذا تقدم الناشرون بعروضهم الي . اما الشخصية الرئيسية فهو روسي من مرتبتنا الاجتماعية ، رجل مسن لم يتثقف ثقافة جد جيدة بل هو على قسط يسير منها ، انسان ذو قيمة ، اذا به فجاة يفقد ايمانه بالله . وهو في ارذل العمر . كان طيلة عمره مهتما بوظيفته في الخدمة المدنية ، لم يغادر مكانه قط ، ولم يقم باي عمل يشار اليه حتى الخامسة والاربعين من عمره (انه توضيح نفساني) رجل جدي ، انه روسي ، كان لفقدانه الايمان بالله اعظم الاثر فيه . خلفية القصة ومجرى فعلها على نطاق واسع . هذا الرجل يختلط بالجيل الناشيء : من ملاحدة وسلافيين متعصبين واوربيين وفرق دينية متطرفة ورهبان وقسس ، ثم يورط نفسه بالاضافة الى هؤلاء في الاتصال بداعية بولندي يسوعي ، وينتهي به الامر الى هاوية طائفة الضاربين انفسهم بالسياط ــ وفي النهاية يستعيد ايمانه بالمسيح وروسيا والاله الروسي والمسيح الروسي ، ارجوك لا تحدث احدا بهذا : اما الامر فيما يعنيني ، فانا لا بد ان اكتب هذه القصة الاخيرة ولو قتلتني . انني سأتحدث عن دخيلتي مهما كلف الثمن . »

ولكنه بعد خمسة عشر شهرا غير العنوان ومحتويات قصته المقترحة بعض التغيير . اعلن دوستويفسكي في رسالة من درزدن الى مايكوف بتاريخ ٦ نيسان ١٨٧٠ قائلا متنبئا : « ستكون قصتي هذه الاخيرة وستكون كبيرة كبيرة كـ « الحرب والسلم » . انا متأكد من استحسانك لفكرتها ، وهذا على الاقل ما استلخصه من احاديثي معك . هذه الرواية ستحتوي على خمس قصص طويلة . انضجت الفكرة في راسي في غضون السنتين المنصرمتين ، ان القصص ستكون مستقلة عن بعضها . ويمكن بيعها على انفراد . تجري حوادث القصة الاولى في الاربعينيات . اما العنوان العام للرواية فهو « حياة خاطىء عظيم » وفي الوقت نفسه ستحمل كل قصة عنوانا خاصا . ان المسألة التي ستبحث في الاجزاء كلها مسألة اثارت اهتمامي بوعي او بغير وعي طوال حياتي ، وهي وجود الله . بطلي ــ في اثناء حياته ــ ملحد مرة ومؤمن مرة ومتعصب احيانا ومنشق على الدين احيانا اخرى ثم يعود ملحدا في الختام . اما حوادث القصة الثانية فستجري في دير . انني اضع كل آمالي في هذه القصة . ربما سيقول الناس : ليس كل ما كتبه سخافة . انا اقول هذا لك فقط : اريد ان اجعل تيخون زادونسكي الشخصية الرئيسة في القصة . طبعا باسم آخر . ولكنه سيكون مطرانا يعيش متقاعدا في دير . ان بطل قصتي القابلة صبي متحلل الاخلاق في الثالثة عشرة من عمره ، ومع صغر سنه يقترف احدى الجرائم ،

فيضعه والده في دير لتثقيفه . مع انه ابن ذئب عدمي (نهلستي) (١) ، فهو يصادق تيخون . انت تعرف اخلاق تيخون وشخصيته ، اليس كذلك ؟ .. لن اخلق شيئا بل انما سأعرض تيخون الحقيقي على الناس الرجل الذي احببته من مدة طويلة .. ستعالج القصة الاولى طفولة بطلي .. » حاول دوستويفسكي ان يدخل شخصية تيخون على قصة الشياطين ، وفي حزيران ١٨٧٩ زار المطران في دير اوبتينا يصحبه الفيلسوف الشاعر الشاب فلاديمير سولوفيوف . فقضيا اسبوعا في الدير وقد ضمن المؤلف انطباعاته عن زيارته في اوصافه للدير في الاخوة كارامازوف . وكذلك الاب زوسيما فهو يشبه تيخون . وبتعابير تكاد تكون متشابهة كتب دوستويفسكي الى الناقد ستراخوف مختتما رسالته بالتوكيد على ما عزم عليه قائلا : « هذه الفكرة ستكون نهاية المطاف في حياتي ، انني لا اتوقع ان اعيش واكتب اكثر من ست او سبع سنين . »

وفي الوقت نفسه فان الحوادث السياسية في روسيا حيث عاد اليها ٢٠ تموز ١٨٧١ ، وخاصة الحركة الارهابية النامية حملته على تأخير كتابة روايته الهائلة والاستعاضة عنها بـ (الشياطين) . كما انه استأنف عمله الصحفي بتحرير مجلة المواطن وعلى صفحاتها نشر افكاره الرجعية المتطرفة تحت عنوان «مذكرات كاتب» ثم جمعها بعد ذلك ونشرها على انفراد ... قال صديق حميم متحدثا عنه : « لم يستعد رصانته في غضون هذه السنين ، هذه الرصانة الملازمة طبيعة لمن يعمل هادئا . ان التوتر الداخلي لم يكد يتركه . وكان في حالة من العصبية والحساسية الدائمتين وخصوصا في اواخر سني حياته . » لقد اصبح — في الوقت الذي بدأ فيه كتابه الاخوة كارامازوف — نحيفا يهدد ابسط جهد . وقد عانى من تمدد الرئتين ، وبانفجار احدى الاوعية الدموية الرئوية ونوبة الصرع التي ضاعفت ذلك الانفجار (قضى دوستويفسكي ، نحبه في ٩ شباط ١٨٨١) .

خطط دوستويفسكي المسودة الاولى الاخوة كارامازوف في خريف ١٨٧٤ اي حوالي اربع سنين قبل البداية في كتابة الرواية وهذه المسودة تقتفي اثر قصة الينسكي وتحتوي على معظم عناصر قصة ميتيا ...

(تحتوي الرواية على موضوعات كثيرة ومتنوعة ومن هذه الموضوعات الطفولة وسوء معاملتها وما تقاسيه من ضروب الضياع والهوان ، وما تعانيه من نكبات وويلات في مجتمع متفسخ كالمجتمع الذي عاش فيه المؤلف ، ومنها دور المراهقة واهميتها البالغة في الكيان الاجتماعي وما هي عليه من ترد ووضع مزر مؤسف) (٢)

اراد دوستويفسكي بادىء بدء معالجة الموضوعات الرئيسة في الاخوة كارامازوف كتفسخ العائلة الروسية والدولة الروسية في قصة منفصلة بعنوان «فوضى» وقد جاء في الملاحظة المؤرخة في ٢٦ آب ١٨٧٥ ما يلي : « عنوان القصة (فوضى) وكل فكرتها هو بيان الفوضى الشاملة الضاربة اطنابها على المجتمع في شؤونه وفي افكاره السائدة ، التي لا وجود لها ذلك السبب ، وفي معتقداته غير الموجودة ، وفي تفسخ الحياة العائلية . واذا ما وجدت معتقدات عاطفية فهي معتقدات هدامة (اي اشتراكية) . لقد ذهبت الافكار الاخلاقية ولم يبق منها فكرة واحدة ... »

من الآراء ما يذهب الى ان دوستويفسكي لم يكمل روايته وهذا الراي يستند الى مقدمة المؤلف المرتبكة الى القارىء ، غير ان هذا الراي لا يستند الى سند واقعي ابدا . فاكمال الرواية هو ما اعترف به دوستويفسكي نفسه في رسالته الى ايفان آساكوف كما اقتبسناها في بداية هذه المقدمة وفي رسالة اخرى الى احد اصدقائه المقربين ارسلها من ستارايا روسا — ٧ ايلول ١٨٨٠ — كتب فيها : « بالرغم من المناخ اللطيف انني اخذ مكاني على الكرسي ليل نهار . انني اكاد انتهي من آل كارامازوف سأنهي الرواية بانتهاء ايلول وبعدها سأعود الى بطرسبورغ هذا من جهة ومن جهة اخرى ربما ادرك اكثر من غيره ان الرواية في شكلها الختامي كانت بعيدة عن الكمال . يقول دوستويفسكي بهذا الصدد في رسالة وجهها الى احد المراسلين — نيسان ١٨٨٠ — « انا اعرف كغيري من الكتاب ان عندي الكثير من الاغلاط ، والدليل على ذلك انني غير راض عن نفسي . وفي اللحظة التي اجرب فيها النظر الى عملي — في الحياة — ادرك والالم يخزني بانني خبت تماما في التعبير عن واحد من عشرين مما اردت التعبير عنه ، ولعلني كنت مستطيعا ذلك . والشيء الذي يريحني هو املي الدائب بان الله سيمنحني وحيا بهذا القدر من الزيادة يوما ما .. حتى اتمكن من التعبير عن نفسي بوفرة — وبالايجاز — حتى اعبر عن كل ما هو مغلق في قلبي وفي خيالي ... لا يسعني الا ان اشعر بان ما في دخيلة نفسي اوفر مما استطعت التعبير عنه ككاتب ومع ذلك اقول بغير تواضح مزيف : ان الكثير مما هو حق انبعث من قلبي وهو ما استطعت التعبير عنه . »

واذن فالاخوة كارامازوف قبل كل شيء صورة لروسيا كما رآها دوستويفسكي في السنوات العاصفة ، بداية سنوات السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي . كتب دوستويفسكي الى كاتكوف محرر مجلة موسكو هيرالد حيث كان ينشر الرواية متسلسلة ، كتب قائلا : اجمع بين الشخوص الاربعة (في الرواية) فستحصل على صورة مصغرة الف مرة عن روسيتنا المثقفة المعاصرة ،

(١) العدميون هم طائفة من الفوضويين الروس اشتهروا في اواخر القرن التاسع عشر ، وهم لا يؤمنون بنظام او عقيدة او دين ، المترجم

(٢) من كلام المترجم

(٣) هذه القصة متضمنة في رواية (الاخوة كارامازوف) ، المترجم

وهذا هو السبب الذي يجعلني اعزو اهمية لعملي . وفي رسائل اخرى يصف ثورة ايفان كارامازوف على انهـا حصيلة الفوضوية الروسية الحديثة . او بكلمة اخرى الحركة الثورية الروسية في عهده . وبهذا الشأن يكتب الى كاتكوف ايضا : « يعلن الرافضي الحديث انه بصراحة يؤيد نصيحة ابليس في سعادة الارض ، لان مثـل هذه السعادة هي افضل من تعاليم المسيح . انها محرض قوي لاشتراكيتنا الروسية الحمقاء ، حمقاء لان شبابنا يخبطون فيها خبط عشواء : ارغفة خبز ، برج بابل وهذا هو مستقبل حكم الاشتراكية ، والاستعباد التام لحريـة الضمير . والاخير هو الهدف الذي يسعى اليه الرافضي المستميت . والخلاف هو المستميت . والخلاف هو ان اشتراكيتنا الذين ليسـوا اصحاب المخابيء من العدميين فقط ، هم يسوعيون واعون وكذابون لا يعترفون بان مثلهم الاعلى هو الضغط على الضمير الانساني وحمل الانسانية على الهبوط الى مستوى قطعان الماشية . بينما بطلي الاشتراكي ايفان كارامازوف هو رجـل مخلص يعترف بصراحة انه موافق على افكار رئيس محكمة التفتيش ويبدو ان المسيحية رفعت الانسان الى اعلى من قدره اللائق به . والسؤال الذي اريد ان اوجهه اليهم (يعني الاشتراكيين) انتم منقذو الانسانية في المستقبل ــ هل تكرهونها ام تحبونها حقا ؟ »

وفي رسالة اخرى يعلن دوستويفسكي بوضوح ان الغرض الرئيس من كتابه الاخوة كارامازوف هو انـزال الهزيمة بـ (الفوضوية) الواجب الذي يعده « واجبـه المدني » .

ان تدخل دوستويفسكي في الحياة الاجتماعية والسياسية لبلده يصبح اكثر جلاء في الفصول الاخيرة من قصته وفيها يهاجم المحاكم الحديثة واجـراء المرافعـات بالاستعانة بالمحلفين . وقد شارك دوستويفسكي بذلك اراء بوبيدو نوتسيف رئيس المجمع المقدس الذي استشـاره كما هو معلوم في بعض وجوه روايته . ومما قاله عن المحلفين «ان حانوت المحامين سيبرأ ساحة اشد الجرائم رعبا وافظع القتلة المعلومين ، واشنع الجنايات . » وقد كان حاضرا في المحاكمة الشهيـرة لفيرازاسوليج ــ ١٨٧٨ ــ وفيرا هذه امراة ارهابية كانت في سنتها السابعة والعشرين ، وبنتيجة هذه المحاكمة اطلق سراحها مجلس المحلفين وابرأ ساحتها عن تهمة محاولة اغتيال حاكم بطرسبورغ العام . كانت تبرئة هذه المراة مناسبة للهجوم على مرافعة (المحلفين) من قبل الصحافة الرجعية وقد شارك دوستويفسكي في هذه الحملة . وقد ذهب به الامر في هذا الحقل الى ان يضمـن حوادث محاكمـة فيرازاسوليـج في محاكمة ميتيا كارامازوف ...

من مميزات دوستويفسكي في اساليب عمله بصفته روائيا تحمل المتاعب الكثيرة التي يكابدها للتحقق من صحة الحوادث المختلفة في قصته . ففي احدى رسائله الـى بوبيدو نوتسيف يوكد الواقع في اهـم كتـب روايتـه (الالحاد وتفنيد الالحاد) (٣) ويقول : « انني لـم اخن مبادىء الواقعية حتى في موضوع تجريدي مثل هذا . » ومما قاله لكاتكوف انه استشار اثنين من الادعاء العام في بطرسبورغ قبل كتابة محاكمة متيا وانه درس حالة ايفان الصحية مع المختصين بالطب كما فعل بتفاصيل جنازة الاب زوسيما اذ عرضها على اعضاء المجمع المقدس ... ومما قاله لكاتكوف في هذا الصدد : « ان كل ما يسرده بطلي ايفان ــ في النص الذي ارسله اليك ــ مبنـي على الحقائق الواقعية وكل الحوادث التي تتعلق بالاطفال وقعت فعلا وقد نشرت في الصحف . لم اختلق شيئا والدليل على ذلك : الجنرال الذي اصطاد طفلا بمعاونة كلاب الصيد، الحادثة منشورة في الملفات الحكومية ، وقد اعيد نشرها في العديد من الصحف . »

اهتم دوستويفسكي اهتماما خاصا بالاطفال وبمشكلة الطفولة ، ومن طريق حل هذه المشكلة اراد وضـع حد للنزاع السياسي في روسيا وهو النزاع الـذي ينز في المقدمة نزا مؤلما . ومما قاله في هذا الشأن في رسالة ــ ٢٨ مارث ١٨٧٨ ــ الى احد مراسليه : « لقد أسرني قولك انك تحب الاطفال ، وانك تقضي الكثير من وقتك بينهم ، وحتى الان انت غالبا معهم . وعلى هذا اسألك ان تسدي الي معروفا عظيما ، انني سأبدأ في القريب بكتابة رواية جديدة سيسهم فيها اطفال وخاصة ممن تتراوح اعمارهم بين السابعة والخامسة عشرة . سيكون هناك العديد من الاطفال وانا الان ادرسهم وقد درستهم طيلة حياتي ، انني امحضهم اشد المودة ، ولي منهم عدد لا بأس به . ومع ذلك ، فملاحظات انسان مثلك ملاحظات قيمة جدا بالنسبة لي . ولذا ارجوك اكتب لي عـن كل شيء تعرفه عن الاطفال . حوادث ، عادات ، اجوبة ، كلمات ، أمثلة ، صفات خلقية ، الموقف تجاه عوائلهم ، ايمانهم ، اعمالهم الشريرة وبراءتهم ، الطبيعة والمعلم ، اللغة اللاتينية الخ . وبالاختصار كل شيء تعرفه . انك ستساعدني كثيرا وسأكون شاكرا لـك هذه المساعـدة . » ولـم يكتف دوستويفسكي بذلك بل اعتمد عـلى اعمال بستالوزي وفرويل وقرا مقالات ليو تولستوي عـن المدارس ، حين تناول الاطفال في فصوله .

وبهذه الوسائل سعى دوستويفسكي لتعميق وتوسيع الميزات الواقعية لروايته . الواقعية كـما يستنتج من استخدام متيا لهذا التعبير ، كانت من اشهر الشعارات الادبية الشعبية فـي ذلـك العهـد ! ومع ذلـك ، فان دوستويفسكي ابتعد من اشكال الواقعية الخشنـة عند ابداعه للشخوص ... وكان هدفه بصفته كاتبا خلاقا هو ما اعلنه في مذكراته : « انني ابحـث عـن الانسان في الانسان . ولذا ادعى عالما نفسيا وهذا غير صحيح . انا

لو عدت

عرّج، فداري كما كانت، يضاحكها ... حلم السنونو، وتغريد الحساسين
يثيرها الزنبق النشوان ، يمنحها ... نضارة الورد من أعماق تشرين
تغازل السحبُ رياها ، فتبهجها ... حيناً، وتبكي رؤى الماضي الى حين
وكم يهيج بهـا الزوار من الم ؟ ... فأعصر الروح ، مذ جفت تلاويني
احيا على راعش الماضي ونشوته ... والامس ما ظل في كاسي يعاطيني
مرُّ الزمان، وصبر الشيب في الق ... مات الشباب به في عنف كانوني
وذكرياتٍ عطاشى لو يزينهـا ... سحر الاماسي، مازالت تواسيني

* * *

قد عرشت كرمة في القلب مغنية ... هلا عصرت وان كانت ستفنيني ؟
أو عدت لي ليلة اجني النجوم لها ... تعب من نخب لقيانا ، وتلقيني
بعد الصباح جناحا طائشا وهوى ... ينادم الوهم في اعصار تكويني

حمص ... **عبد الكريم الناعم**

كاتب واقعي في اسمى معاني الكلمة ، أي انني اصور اعماق الروح الانسانية . » كانت طبيعة دوستويفسكي منقسمة على نفسها بصورة غريبة . فكتاباته الصحفية وخاصة « مذكرات كاتب » التي عبر بها عن ارائه وافكاره تمتاز بالفظاظة والخشونة وتفتقر الى البصيرة وهي لا تستحق ان تقاس بكتابات اي مؤلف عظيم . اما في مؤلفاته المبدعة ولا سيما في الاخوة كارامازوف فهو يسبر اعمق الاغوار في التفكير بحيث يسبق ايا من كتاب عصره او غير عصره. لقد كان بحاجة الى الالهام ليطفىء غيظه فرد اعدائه السياسيين ، وتحيزه العرقي ، وبخاصة امتعاضه من منافسيه الادبيين الذين حظوا بنجاح اوفر منه . وفي « اسطورة حاكم التفتيش » التي يعدها دوستويفسكي ذروة فعاليته الادبية، يقوم بهجوم غير مباشر على الاشتراكية بأن يجعل ايفان يتقبل ما اعتبره غاية سياسة الكنيسة الكاثوليكية ، يعلق دوستويفسكي نفسه قائلا : « عنيت بالحجارة وارغفة الخبز مشاكلنا الاجتماعية الراهنة . ان اشتراكية اليوم – في اوربا وفي بلدنا على حد سواء تطرد المسيح جانبا وتعنى بالخبز قبل كل شيء . وهي تلجأ الى العلم وتعتقد ان الفقر هو سبب الشقاء البشري بأسره.. » وبعد مهما تكن فكرة دوستويفسكي عن كفارة الاثم من طريق التألم فهي تبرز حين يضعها في فم ديمتري كارامازوف .

ان التلاحم التام بين الفكر والاخلاق الفضلى هو الذي يجعل دوستويفسكي يفوز فوزا عظيما لا بصفته فنانا خلاقا حسب بل بصفته مفكرا عميقا جريئا ايضا . والواقع ان التناقض الظاهر في دوستويفسكي الكاتب هو انه يكون اقوى ما يمكن حين يدافع عن اراء وافكار مخالفيه ، بخلافه عند الكلام على افكاره ومعتقداته ... وفي هذا الافتقار الى الانسجام بين دوستويفسكي الكاتب المبدع ودوستويفسكي الانسان تكمن حياته العظمى والى هذا السبب تعزى طبيعته المتهيجة الشكوكية ، هذه الطبيعة التي كانت امتحانا لاقرب اصدقائه . وبعد خطابه الناجح بمناسبة ازاحة الستار عن نصب بوشكين في موسكو في حزيران ١٨٨٠. قال بحزن وتأثر : «انهم لا يفهمون الشيء الذي يهمني . فهم يرفعون قدري ظنا منهم انني لا ارضى بالنظام الحاضر في بلدنا ، ولكنهم لا يرون انني ادلهم على طريق الكنيسة . »

وفي الاخوة كارامازوف ايضا وجد دوستويفسكي حلا للمشاكل الروسية في الكنيسة الاغريقية الارثوذكسية ، الا ان هذا ليس بسبب لن يعترف بالرواية هذه على انها اعظم انتاج لعبقريته . ان عظمتها تكمن في الدراما الانسانية الشاملة وليس في محاولة دوستويفسكي الخائبة في ان يحول روسيا الى دير هائل .

بغداد ... **يوسف عبد المسيح ثروة**

عندما سأل الحوذي ـ عابر السبيل ـ الذي سار بطول طريق ايفيبيري دي لينتنيني المنبسط كقطعة من بحر مقفر ، تعلوه نباتات كاتينا البرية الجافة ، حيث برتقال فرانفنت الاخضر ، وشجر فلين ريسكونت الرمادي ومراعي صحاري باسانيوودي باسانيتيللو (١) ... نعم عندما سأل ذلك الحوذي العابر ـ ليبعد عن نفسه ملل الطريق الطويل المترب ، تحت السماء الساكنة ، في تلك الساعة التي كانت تدق فيها أجراس العمل الحزينة في الريف الشاسع ، وقد تركت بغلاته رؤوسها وذيولها تهتز وهو يغني اغنيته السوداء كي يتغلب على الام الملاريا ـ لمن هذه الارض ؟!

وسمع من يجيبه : انها لماتزارو .

كان ذلك عند مروره بعزبة كبيرة ، ذات مخازن بدت كالكنائس واسراب دجاج تجمعت في ظل البئر ، حيث النساء اللائي وضعن ايديهن على عيونهن ليرين من هذا العابر .

ـ هذه الارض لماتزارو ؟! .. ردد متمتما بينما كانت الملاريا تثقل عينيه وتهزه ... وفجأة سمع نباح كلب ... ثم يمر بكرمة شاسعة ويتزايد نباح الكلب على التل ، ثم على الارض في جمود كئيب دون ما حركة ، وكأنه حمل على كتفيه من التراب ما يشل حركته ، ... بينما انبطح خفير فوق بندقيته بالقرب من الطريق ، يرفع راسه ويفتح احدى عينيه ليرى من يكون ذلك السائل .

ـ هذه الارض لماتزارو .

وانتهى عابر السبيل الى مزرعة الزيتون الكثيفة كالغابة ، حيث لا ينبت الحشيش أبدا وحيث يستمر الجني حتى شهر مارس ـ انه زيتون ماتزارو .

* * *

وليس هذا فقط ففي المساء حينما تكون الشمس حمراء كالجمر والريف يلفه الحزن ، وقد تقابلت الخطوط الطويلة التي خطتها محاريث ماتزارو استعدادا لزرعة الصيف ، والثيران تخوض القناة الصغيرة الضحلة ، وقد غاصت ارسانها في الماء ... تشاهد من بعيد مزارع كانسيريا على جانب التل العاري حيث استقرت البقع الهائلة من اسراب حيوانات ماتزارو ، وتسمع صفارة الراعي تتحشرج في زوره ... وكأنها النشيد الوحيد الذائب في الوادي العظيم .

كل هذه الثروة لماتزارو ، حتى بدا ذلك الحوذي العابر يشك في ان الشمس التي تشرق قد صارت في قبضته ، حتى تلك الحشرات التي تدندن والطيور التي تهفهف بطيران



الارض

للروائي الايطالي جيوفاني فيرجا

ترجمة السيد فرج

خفيف خلف الشقوق المعدة للبذر ، وربما كذلك تلك الصفارة التي اطلقها العصفور من الغابة . وحتى ليبدو وكان ماتزارو بالغ الضخامة وان جسمه يغطي هذه الارض ، وان الناس تمشي على كرشه ... وان كان على النقيض من ذلك ، فانه كان قزما لا يملك من الضخامة غير كرشه ولا يعرف ماذا يفعل ليملأه لانه لا ياكل غير خبز بصلدين ، وهو لذلك غني كخنزير ، وعندما تراه تعتقد انه لا يساوي قرشا ولكنه يملك الراس اللامعة المفكرة . تلك الراس التي استطاع بها ان يجمع كل هذه الارض ، فقد كان ماتزارو ، يعمل في عزق الارض من الصباح حتى المساء ، ويقلم الاشجار ويحش الطفيليات لإيهاب الشمس ولا الماء ولا الريح ، حافي القدمين ، لا يملك حتى قطعة من معطف .

لم يكن يملك الا تلك (الشلاليت) التي كانت تأتيه من الخلف ، من هؤلاء الذين امسوا يجلونه ويحترمونه ويتكلمون معه ، رافعين قلنسواتهم في ايديهم . وليس بهذا وحده صار اعلامهم مقاما ... ولكن لانهم ـ سادة البلد ـ جميعا صاروا مدينين له ، وهذا هو سر تملقهم له ، ولكنه مع ذلك يقول ان تعظيمهم له يعني (في اعماق نفوسهم) ـ ايها الشيطان البائس او ايها الدائن الشرير .

انه مع ذلك الغنى كان لا يزال يحمل (بيريه) من الحرير الاسود ، بل لقد غيره في النهاية بآخر من الجوخ ، لانه وجده ارخص من (البيريه الحريري) .

وعلى هذه الارض التي تترامى على مدى بصره ـ وبصره بالغ الطول ـ ففي كل مكان يمينه وشماله امامه وخلفه ، يأكل خمسة الاف فم ـ وهم عماله ـ باستثناء طيور السمك وهوام الارض ، وباستثناء فمه الذي يأكل اقل من هؤلاء جميعا لانه يكتفي بخبز لا يتجاوز ثمنه (صلدين) وقطعة من جبن يبتلعها في سرعة وشراسة بجانب المخزن الكبير ونصفه مغبر بالدقيق الذي لم ينتبه اليه عندما كان الفلاحون يفرغونه في الزكائب او يكدسونه في الجوالات والريح تكنس الريف الرطيب ساعة البذار او براسه الغارقة في (صندوق زبالة) ـ اتقاء الحر ـ ايام الحصاد القاسية الحرارة

انه لا يشرب النبيذ ، ولا يدخن ولا يستعمل التوباكو .. ذلك التوباكو الذي تزرعه بساتينه على طول النهر ، ذو الاوراق الكبيرة الطويلة كالاطفال ... انه ليس ذلك الذي يحمل رذيلة اللعب ولا رذائل



(١) كل هذه الاسماء اللاتينية ، اسماء لاماكن في صقلية مسقط راس الكاتب .

أخرى ، وحتى النساء ما ارتمى على اكتافهن اللهم الا امه ألتي دفع من اجلها – على مضض اثنتي عشر قرشا عندما حملها مضطرا الى القبر .

* * *

اذا ما الذي جعله يفكر مليا ذات يوم عندما ذهب حافيا ليعمل في الارض – الارض التي اصبحت له – ماذا يقصد بالارض ؟ لقد جرب ماذا يفعل بالثلاثة قروش التي كان يأخذها اجر يومه في شهر يوليو عندما كان يظل منحني الظهر اربع عشرة ساعة، وخلفه (الخولي) راكبا جواده يلهب ظهره اذا ما رأى منه بادرة للوقوف. ولهذا لم يدع لحظة من حياته كان من شأنها ان تحفزه على تكوين المال .

والان اصبحت محاريثه كثيرة متعددة كأسراب طويلة من طيور نوفمبر ، واسراب أخرى من نساء ينكمشن في الطين يجمعن زيتونه ، اللائي لا يستطعن عده كما لا يستطعن عد الطيور التي جاءت لتنال منه . هؤلاء النساء اللائي يخرجن من قراهن الى كرومه – مطلقات الغناء – لجنيه

ان الحصادين ليبدون كجيش من الجنود . وان هذه الجموع تريد حفنات النقود والمكرونة التي كانت توضع لهم في قصعات كبيرة (كالطشوت) ولذلك عندما كان يسير ممتطيا جواده خلف جموع حصاده وفي يده سوطه ، كان لا يختفي من عينيه واحد منهم مهددا انحنوا (يا اولاد) .

لقد ظل طوال السنة ويده في جيبه لينفق ، ولكن فقط أجر العمال والضريبة ... ومن اجل الضيعة وايضا من اجل الملك الذي كان يسلبه كثيرا – الامر الذي كان يصيبه بالحمى في كل مرة .

كانت مخازنه الكبيرة كالكنائس تفيض بالدقيق كل سنة ، وكان في كل مرة يبيع فيها نبيذه ، كان يحتاج ليوم كامل كي يعد فيها نقوده (ثمن النبيذ) ، وكان يبيع كل زجاجة باثني عشر قرشا فضة ، نعم فضة لانه لم يكن يريد نقودا ورقية يضيفها لثروته ... كان يحمل تلك النقود الورقية فقط عندما كان يدفع للملك او للاخرين .

وكانت حيواناته تغطي الاسواق ، وتضج بالشوارع . انه بلا شك يحتاج لنصف يوم كي يجعل منها صفوفا ، لذلك كان يضطر القائمون بأحتفالات القديس حامي البلد الى تغيير طريقهم والتخلي عن طريق مرور حيوانات ماتزارو .

كل هذه الارض التي كونها بيديه وبرأسه ، وبحرمانه من نوم الليل ، وبحمى القلق والملاريا والضنى والتعب من ألفجر حتى المساء ، وبالذهاب هنا وهناك (للتمشيط) تحت الشمس وتحت المطر ، بانهاك حذائه ذي الرقبة وباتعاب بغلاته.. هو وحده الذي لم يكل ، يفكر دائما في ارضه ... ارضه التي لم يكن يملك من الدنيا غيرها ، فلم يكن له ابن او قريب او حفيد ، وانه هكذا مثل لمن يعمل ليكون ارضا ... وحتى الارض بدت وكأنها (لايقة عليه) ، انها تبدو كمغنطيس يجذبه ، لان الارض تجتذب الذي يحفظها وليست للذي يشتتها كذلك البارون الذي كان سيدا لماتزارو – يوما ما – ماتزارو الذي كان عاملا بائسا عاريا في حقوله ، والذي اصبح الان مالكا لكل هذه البساتين ، وكل هذه الحقول ، وكل هذه الغابات ، وكل هذه الكروم والحيوانات .

لقد كان البارون عندما يأتي الى ارضه ممتطيا جواده ، وخلفه اجراؤه – كأنه الملك – كانوا يعدون له مكان (القيلولة) والغداء ، له هو ذلك (العبيط) كما كان يدعوه ماتزارو.. لقد كان كل واحد منهم يعرف الساعة، بل اللحظة التي يأتي فيها البارون . انه لم يكن ذلك الذي يفاجئهم بيديه في الركائب كما يفعل ماتزارو الان ، لذلك قال عنه ماتزارو – يوما ما – لا بد ان ذلك الرجل اراد ان يسرق بالقوة ، بينما كان ينفجر ضاحكا ، ولقد كان عندما يوسعه البارون (بالشلاليت) من الخلف كان يملك ظهره بيديه متذمرا ونفسه تقول : « ان ذلك العبيط يجب ان (يتلقح) في بيته ، لان الارض ليست لمن يملكها ، ولكن لمن يستطيع ان يكونها » « ... انه بعكس البارون تماما فبعدما ملك الارض ، لم يقل مرة اذا ما كان سيأتي ليشرف على الحصاد والجني أم لا . ولكنه يفاجئهم ماشيا على رجليه او راكبا بغلته ، وقطعة الخبز في جيبه، وينام بالقرب من كهوفه وقد فتح عينيه واضعا بندقيته بجانبه ... وعلى كل حال فقد اصبح ماتزارو شيئا فشيئا صاحب كل ارض البارون ، ذلك الذي خرج من مزرعة الزيتون ثم مزرعة العنب ثم من المراعي ، ثم من العزبة واخيرا من قصره نفسه ، بل لم يمض وقت قصير حتى وقع كل عقود البيع ، وبضم ماتزارو بصمته الرائعة ... ولم يبق مع البارون شيء اخر الا الدرع الاثري الذي كان مستقرا على البوابة العظيمة ، والذي كان رمزا لمجد الاسرة) وكان الشيء الوحيد الذي لم يرغب في بيعه قائلا لماتزارو : (هذا شيء وكل ثروتي شيء) ، انه لم يصنع لامثالك، وكان هذا حقيقة فماتزارو لا يعرف ماذا يفعل به ، ثم انه لن يستطيع ان يدفع بابوكين ثمنا له .

وعلى العموم فبالرغم من ان البارون لا يزال يناديه بأنت مجردا من أي لقب فانه لم يعد يستطع ان يوسعه (تشليتا) من الخلف كما كان يفعل في الماضي .

– انه لشيء جميل : امتلاك كل هذه الارض وكل هذا النعيم الذي يملكه ماتزارو ، هكذا كان يقول الناس وهكذا تمنوا لانفسهم ولم يدروا بأي طريقة استطاع ان يحصل على هذه الارض ... فكم من تفكير وكم من تعب وكم من خداع وكم من عجائب اجبرته على تلك (الاشغال

الشاقة) ... وكم سهرت رأسه المفكرة تعمل النهار والليل ، احسن من رحى تديرها البغال ... من اجل الارض ...

* * *

وكان ماتزارو اذا ما ظهر مالك معاند واراد ان (يلخمه) باستئجار قطعة من ارضه ، جاهد باحثا له عن خديعة يجعله بها يخسر (الجلد والسقط) .. كان ذلك يحدث بالرغم من عدم ثقة الفلاحين فيه .. وعلى سبيل المثال كان يقنع ذلك المستأجر بخصومة قطعة معينة من الارض وهي في الحقيقة لا تنبت الا الترمس، وحيث ان الشيطان البائس قد اعتزم ان يؤجرها وغامر فيها بأجر باهظ ، يخسرها ثم يخسر الايجار ، ثم يخسر قطعة الارض التي يمتلكها ثم البيت.

وكم من مضايقات يتحملها ماتزارو: فالمستأجرون الذين يأتون ليشكوا من المحاصيل في المواسم التي لم تأت اكلها ، والمدينون الذين يرسلون نساءهن في شبه موكب شاكيات ، شادات شعورهن ضاربات صدورهن، متوسلات اليه كيلا يجعلهن طريدات في الطرقات بسبب حميرهم وبغالهم التي لا تجد العلف .

— ارأيتن ماذا آكل انا ؟ . ثم يجيب : خبز وبصل ، واذا سألته حفنة من الفول من كل هذه الثروة قال :

— وهل سرقتها ؟ أولا تعرفن كم دفعت ثمنا للبذر والعزق والجني . واذا سألته صلديا اجاب: انه لا يملكه.

وانه لا يملكه حقا ، لانه لا يحمل في جيبه *ابدا نقودا* ، *كان يستثمرها* من اجل الارض ، ومع انها كانت تدخل وتخرج من بيته كالنهر ، كان يقول انها ليست ارضا وحقيقة كانت الارض تهمه اكثر من النقود ، ولذلك فحالما كان يجمع مبلغا معلوما من المال كان يشتري به سريعا قطعة ارض ، لانه اراد ان يمتلك تلك الارض التي يمتلكها الملك ... وانه حقا لخير من الملك ، لان الملك لا يستطيع شراءها ولا يستطيع ان يقول ماذا تكون ارضه .

* * *

شيء واحد بات يضايقه ، لقد بدات الشيخوخة تدب في جسده والارض يجب أن تودعه هناك حيث كان ، ان هذا ليس عدلا ، فبعدما استنفد الحياة في تكوين الارض ، وعندما وصل الى امتلاك كل هذا ، يجد نفسه مرغما على تركها .

وبقي ساعات جالسا على صندوق (الزبالة) واضعا ذقنه بين كفيه ناظرا الى كرومه التي ملأت خضرتها عينيه ، وحقوله التي تتماوج سنابلها كالبحر وزيتونه الذي تسلق الجبل كالضباب .

وثمة طفل يمر في اسماله من امامه ، فيتقوس تحت ثقله كحمار متعب تاركا عصاه بين ساقيه بحقد وتزمر .

— هيه هذا الذي يملك الايام الطويلة لا يملك شيئا ! ! !

وحتى في اللحظة التي قالوا فيها ان « ماتزارو » ترك المادة وبدأ يفكر في الروح ، خرج من الفناء كالمجنون يترنح ، ويجري في ضنى ليعاقب بعصاه اوزة ودجاجة صارخا : ارضي، تعالي معي ...

القاهرة **السيد فرج**

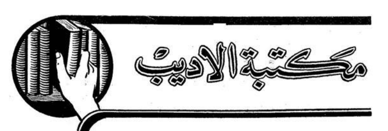
بـائـس

نسيم البحر معتل وهذا الكون وسنان
وانداء معطرة تضمخنا وريحان
وبين الطيب والنشر اراق الدمع اسوان
حزين لا يواسيه لفيض الحزن انسان

دنوت دنو مشفقة اسائله بتحنان
لعلي اجتلي شيئا فاغدق فيض وجداني
فقلت له : وما شكواك اني سلوة العاني
اجاب وجفنه الدامي يحاكي طرفه الواني :

دعيني لا تلوميني انا ملتاع حيران
حكايا الامس تشجيني وما للامس نسيان
فليت الامس ما كان وما كنا وما كانوا

دمشق **سلافة العامري**



عاشق حورية

Amoureux D'Une Fée

تمثيلية باللغة الفرنسية ـ تأليف ادمون معوض ـ ١١٦ صفحة ـ حجم كبير ـ المطبعة الكاثوليكية ببيروت

جديد في هذا الكتاب ، لقد تململ صاحبه كثيرا قبل وضعه .

نزار ، اديب مكروب ، سبي بدل مشرقي قصي ، ففدا له شجو على الجزر . لكن دونه موانع ، ارث لم يوزع ، واخوة يشرهون الى المكاسب، يريدونه كالناس ، وهو يختلف . امنيته ان يعيش في عاله ، وان يغلق عليه بمكان هناك في الشرق الملون .

يتلقاه في هوجان النقمة صديق حميم ، فيمتد حوار ، فيه كلام على الحب عميق ، منبعث من نفس تعيش ، فاللفظ دم ، والصمت استعادة.

ليس فصلا من كتاب ، الحب تحقيق اجتماعي ، كذا يقول نزار ، لسوف يطل فجر وسع المغامرة . وبينا الحوار في اشده ، تقبل ندى ، وعلى يديها من الاهل هدية ، فيؤلم نزارا حفيف الورق فيها ويلمع عليها خيال العبودية .

وترغب ندى ان يبتسم ، وتلح ان يتخلل طموحه افترار .

وتكمل ، فينعكس على محياها اطار لحلم كاد لبعده يعاود الغيب ، انه خيال اليابانية الحلم يعانقه نزار في محاولة تجسيد غريبة . وهنا اروع ما في الحوار ، تراه يلامس فسلفة الشبه فيغيم حينا على وهم مضيع ، ويصحو احيانا على بسمة مزجت بدمعة ، انه الغريب اصلا !

انه المزق على الحياة ، المبعثر كما النار على الرمال ، يتشوف من خلال ذاك الشبه الى كوة يطل منها شيء من الشمس على حياته ، « لكن الحب ، كما الجن ، لا يؤانس » .

لقد بعد عن كل حنان ، فلتعذر ندى ان ترك لها مصادفة النظر ، فعيناه فارغتان وهي في الظل ممن يرى .

ويتعب نزار وراء حوريته ، ولا يفقه كيف يابى ان يذوب جمال ذاك الشبه على فتور جفافه ، كان بين رماد القلب بقايا عذاب من بسمة منسية .

وينتهي الحوار بان يستعين ندى الواجمة على متابعة حكايته .

جميل هذا الحوار ، فيه عمق وشعر كثير . كان صاحبه لم يات في حياته عملا سوى القراءة ، والشعر ، والحلم في اوطان اسيوية قصية .

يطالعك بمباشرة في الحوار رائعة ، لا تهيئة مفتعلة ، ولا ظاهر اهتمام، بل قطعة من الزمن يعيش فيها اديب شجي ، تمر بك حالته وتنتهي الفترة ، ولك من الطواف مقدارها .

على انك ذاهب تميقا ، لله من مختصر في الكلم ومكتنز في المعنى ! اما البيان فرائق الفقر ، لقد افرغ الموضوع في قالب يجمع الى الصفاء ايمان الكاتب بثقافة القارىء ، فالريشة مر على قضية ، واللفظة تلميح .

ان الانطلاقة الشعرية مسبوقة دوما بالفكرة، فلا تبلغان القارىء الا معا.

وكذا شأن بيانه والعاطفة ، تراه كأنه يعادل بين مسافة اللوعة وعدد الكلمات .

هذا الموزع بين عالمين ، وقد تقسمته الهموم، ادرك السخرية العالية ، فهي عنده اقرب الى كنه الوجع منها الى الهزء . ولكم وفق هنا لاختصارات بيانية معبرة .

ان من يقرأ « عاشق حورية » مع سابق تمسك باصولية المسرحية قد يجد مجالا لاكثر من ملاحظة ، لكن في الحوار من محاولة التجديد ، والسعي الى التعميق ، والاشراق في الاداء ما يصرفك عن شكليات لم تعد تبدو حتمية .

كم من كتاب على اصوليته الشكلية منومة ، وكم من محاولة متمردة، بل هوجاء ، تنبض بالحياة وتشرف بك على جدة وابداع ، وحسبك هذان من الادب .

الحب ، سخية مواضيعه على الكتاب ، لكنها خطرة على ذوي الاقلام الكابية ، اما من يعرف ان يتعالى عن المالوف ، ويجهد القلم في غير ما مبتذل ، ويحذق في اخفاء براعاته ، فلا بد انه بالغ .

وصاحب « عاشق حورية » ادرك ان مسرحيات العقدة شيء ممل ، وان الحب على غناه بحاجة الى طرافة ، وان البيان الرائع لا بد من توافره مهما كان الموضوع ، فاخفى لباناته وراء بيانه ، وادخل على الحب لطافة الشبه ، حتى غدا وجود الحب نفسه موضوع جدال ، وبدا بقدرة اللامبالي في عرض حواره ، وآمن ان الذي يحب حقا لا بد مصيب ، فكانت له محاولة موفقة .

بهذا الحوار ، اثبت ادمون معوض انه في الادب من اولي النسب النضار ، فهو مطبوع على البيان ، بصير بمواضع الاجادة ، ما خانته الريشة في الجري الى الحق .

سيكون لهذا القلم صفحة مشرقة بين التي أعدت لنا بلغة راسين .

انطون قازان

•

علم اللغة : مقدمة للقارىء العربي

تأليف الدكتور محمود السعران الاستاذ المساعد بكلية الاداب جامعة الاسكندرية ـ ٤٩٣ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار المعارف بمصر ـ فرع الاسكندرية

هذا كتاب جديد يتناول موضوعا قديما هو اللغة ، وقد عاشت اللغة مع المجتمع الانساني الاف السنين في اشكال مختلفة وكانت أهم وسائل الاتصال بين الناس شعوبا وافرادا ، وكانت اهم طريقة لنقل معالم الحضارة الانسانية على مدى عصور التاريخ تنطبع الوان المعرفة بواسطتها في اذهان الناس جميعا اطفالا ثم تصحبهم طول حياتهم ، وقد يترك الواحد منهم آثارا مكتوبة فتعيش لغته بعده وتطول بها الحياة الى اماد بعيدة . واذا نحن تركنا الحديث عن اللغة كوسيلة للتعليم والتفتنا الى وسائل الاعلام المتعددة في حياتنا الحاضرة وجدنا ان اللغة هي العنصر الاساسي فيها ، ولذلك فالدول لا تدخر جهدا ولا مالا في سبيل تقوية وسائل الاعلام واستعمال اللغة في المذياع والتلفزيون والصحف والكتب المختلفة ، وما كان لاحد في بقعة من بقاع الارض ان يعلم عن التقدم الفكري لاخر في مكان مختلف من المعمورة الا عن طريق اللغة فاي جهد يبذل في دراستها دراسة جادة جهد غير ضائع بل انه جهد لا بد ان يبذل في كل مجتمع يبغي الرقي ، ولا بد ان يوفر له العلماء وان توفر لهم اسباب التفرغ .

قد يحسب القارىء الكريم هذه المقدمة فضلة لا داعي لها لان كل ما قيل فيها مسلم به لا شك فيه ولكنني اضطررت الى هذه المقدمة لسببين :

اولهما ان كثيرا من الناس ـ ومن بينهم بعض المثقفين ـ ينسون او يتناسون اهمية الدراسة اللغوية .

وثانيهما ان وفرة من الناس يظنون ان دراسة اللغة لا تتصل الا بكتاب نحو يحفظ وتقرأ حاشيته او ببيت شعر يشرح والى هؤلاء واؤلئك نقول ان دراسة اللغة تمس جوانب متعددة من الحياة الانسانية حيث يستعمل الادميون اللغة . وكل دراسة جادة لتلك الجوانب تلقي ضوءا على مشاكل اساسية في حياة الانسان ، ولاهمية الدراسات اللغوية بالغ بعض العلماء فادعوا ان حل كل مشاكل الانسان على الاطلاق لا يأتي الا عن طريق الفهم الصحيح للغة (أنظر ص ٣٢٣-٣٢٦) .

وعلم اللغة الان لم يعد ينظر الى اللغة على انها نص مكتوب فقط ، ولكنه يدرسها على انها نشاط انساني له دور كبير في المجتمع ويأخذ بذلك مكانه بين العلوم الانسانية المختلفة ، كعلم الاجتماع وعلم النفس والتاريخ والجغرافيا الى غير ذلك .

وبهذا التصور ـ اللائق بدارسي القرن العشرين ـ يكتب الدكتور محمود السعران كتابه « علم اللغة » فالموضوع الذي يتناوله الكتاب قديم كما اسلفنا ، ولكن العلم في ذاته وبصورته في هذا الكتاب جديد كل الجدة غريب على العالم العربي فيما عدا القلة المتخصصة .

ومن عجب اننا في عالمنا العربي حريصون اشد الحرص على اللحاق بالغرب في مختلف العلوم مثل علم الفلك وعلم الحيوان وعلم الطبيعة ، ولكننا لا نهتم بما حققه علم اللغة من تقدم مع ان وسائل البحث فيه ومناهجه وتصورات علمائه عن اللغة قد تغيرت كثيرا عن الدراسة في العصور القديمة التي ما زلنا نتقيد باثارها في دراساتنا للغة . وفي هذا يقول المؤلف (ص ١٨) : « ان « علم اللغة » الحديث ، بالنسبة الى الفهم اللغوي القديم ، كعلم الطبيعة او الكيمياء او الفلك او الرياضيات بالقياس الى نظائرها عند اليونان مثلا . ولكن العجيب في الامر اننا في درسنا وتدريسنا الطبيعة والكيمياء والفلك والرياضيات لا نجد غضاضة او غرابة في ان ندرسها وندرسها كما هي عليه في احدث صورها . اما ما كان عند القدماء من ذلك فنحن نعرض له في تواريخ تلك العلوم ، او بغية الوصول الى افكار او اراء او فروض او محاولات موحية خلاقة . فالعلم الجديد ، وهو تطور للعلم القديم ، لا يقضي على القديم ، انه يؤرخ له ، ولا يزال يستوحيه ويستهديه .

وهذا هو الشأن في « علم اللغة » الحديث انه ـ وهو المنهاج الجديد في فهم اللغة ودراستها ـ يوصي بدراسة جهود الاقدمين والتنقيب فيها لتأريخها التاريخ الصحيح ، ولاستحيائها واستهدائها » .

هذا عن العلم ومقارنته بالعلوم الاخرى اما عن كثرة الذين يشتغلون بالعلم عندنا فيقول صاحب الكتاب في الصفحة نفسها :

« اما جمهور المشتغلين بالدراسات اللغوية عندنا فأغلبهم يرفض النظر في هذا العلم الجديد ، او لا يحاول تفهمه ، او يعجب ان ما في يده من علم قد يحل محله علم حادث وافد من البلاد الغربية » واخيرهم ظنا بهذه الدراسة الجديدة وبالقلة القائمة بها من ابناء العربية يعد علم اللغة او بعض فروعه ، كعلم الاصوات اللغوية ، « ترفا » علميا لم يؤن الاوان بعد للانغماس فيه او التطلع اليه ! » ويستمر المؤلف فيقول :

« وهكذا فجمهرة المصطلعين بالدراسات اللغوية عندنا لا تزال تدور حول محور قديم ، وقد تحسن فيه او تبسط منه ، ولكنه ليس محور العصر ، وهي بذلك تنكر او تهمل ثمرات وجهودا وفيرة دانية . انها في دراستها اللغوية اشبه بالجغرافي الذي ينشىء بحوثه على اساس ان الارض مسطحة ، او بمشتغل بالمسائل الطبيعية لم تسمع اذناه بقانون الجاذبية ، او بالفلكي الذي لا تعدو معرفته عرب الجاهلية الاولى » .

وبعد مقدمة واضحة عن أهمية العلم للدراسات اللغوية في عالمنا العربي يأخذ الدكتور محمود السعران في تبيان الافرع المختلفة التي تتناولها الدراسة في علم اللغة وتتضح من كتابه عدة امور نذكر هنا بعضها مما يزيل اوهاما شائعة :

اولا : ليس علم الاصوات اللغوية هو علم اللغة وانما علم الاصوات فرع من فروع علم اللغة ، كما ان علم الاصوات ليس قاصرا على التعريف بطريقة النطق في اللهجات المختلفة فهذا جانب واحد من جوانب العلم وقد لا يكون أهم الجوانب ، ولعل من يقرؤن بحوث القدماء عن القراءات في القرآن الكريم ثم وصف الحروف العربية من الناحية الصوتية في مثل معجم لسان العرب يدركون ضرورة علم الاصوات لدراساتنا العربية.

ثانيا : لا يهتم علم اللغة اساسا بلفت نظر المتكلمين بلغة ما الى ما هو صحيح والى ما لا يجوز ان يقال لخطئه ، ولا الى طريقة تصحيح النطق او مساعدة المغنين على ان يحسنوا الغناء او مساعدة اطباء الاسنان على عمل الاسنان الصناعية او مصلحة التليفونات على صنع اجهزة تنقل الصوت بوضوح ـ كل ذلك قد يفتي فيه عالم اللغة بما له من خبرة بدراسة الاصوات اللغوية خاصة ، ولكن ليس شيئا من ذلك داخل في اساس علم اللغة انما موضوع علم اللغة هو ان « يدرس اللغة » من اجل ذاتها » فمعناه ان يدرسها لاجل الدراسة نفسها ، يدرسها دراسة موضوعية تستهدف الكشف عن حقيقتها » ص ٥٤ .

ثالثا : لا يعني علم اللغة بلغة بالذات كالعربية او الانجليزية او الالمانية ، ولكنه يقصد الى « التعريف بحقيقة تلك الظاهرة الانسانية العامة التي هي اللغة » ص ٥٢ ، ولذلك فعلماء اللغة يدرسون مجموعة كبيرة من اللغات ليستخرجوا من دراساتهم التصورات العامة عن ذلك النوع من النشاط الانساني وهو اللغة عامة ومن هنا جاءت التسمية علم اللغة العام .

رابعا : ما قد يدرسه المهتمون بالبحث في علم اللغة من اللهجات العامية ليس معناه بأي حال من الاحوال محاولة الترويج لهذه العاميات او احلالها محل الفصحى ، انما هي دراسة علمية غرضها اضافة امثلة حية لتوضيح نظريات العلم العامة ، ثم ان هذه الدراسة من الناحية العملية نوع من الدعاية لعالمنا العربي من حيث تقدمه في الدراسات المختلفة . اما اذا كان هناك من يدعو الى اشاعة العامية واستعمالها بدل الفصحى فهذا امر اخر مختلف لا صلة له بعلم اللغة على الاطلاق ويخطىء من يعقد بينهما اية صلة .

وقد جعل الدكتور السعران كتابه « مقدمة للقارىء العربي » وهذه ميزة كبيرة فيه اذ ان للعلم مراجع كثيرة في اللغات الاوربية المختلفة ولكن عالمنا العربي مفتقر تماما الى كتب في هذا العلم تكتب بلغة عربية وروح عربية وهذا ما نجده في كتاب علم اللغة وفيه كذلك ـ بجانب الصبغة العربية التي هو عليها ـ تطبيق لكثير من المباديء اللغوية العامة على شواهد من اللغة العربية .

وقد عرف في دقة ووضوح بالمدارس المختلفة للبحث في علم اللغة وبأمهات الكتب في الانجليزية والفرنسية ، كما نوه بجهود كل من سبقوه الى الكتابة عن اللغة في عالمنا العربي الحديث ، هذا فضلا عن الاشارة الى البحوث اللغوية عند القدماء . ولذلك فقد جاء ثبت المراجع بالانجليزية والفرنسية والعربية في اخر كتابه ذخيرة كبيرة للمراجع التي يحتاجها الباحث في افرع علم اللغة المختلفة .

ورغم كثرة فروع علم اللغة وتعدد المدارس التي كتب اصحابها فيه واختلاف المصطلحات او اختلاف المفهوم بالاصطلاح الواحد في كل من مدارس البحث عن الاخرى فقد استطاع الدكتور محمود السعران ان يقدم لنا في كتابه هيكلا عاما للعلم بكثير من تفاصيله في صورة واضحة للقارىء العربي .

وقد قسم كتابه الى خمسة ابواب يسبقها تمهيد عن علم اللغة في الوطن العربي . وابواب الكتاب هي :

الباب الاول : علم اللغة موضوعه وماهيته من ص ٤٩ الى ص ٨٥ ،

الباب الثاني : علم الاصوات اللغوية من ص ٨٩ الى ص ٢٢٠ ،
الباب الثالث : النحو من ص ٢٢١ الى ص ٢٨١ ،
الباب الرابع : علم الدلالة او دراسة المعنى من ص ٢٨٣ الى ص ٣٤١،
الباب الخامس : تاريخ الدراسات اللغوية من ص ٣٤٣ الى ص ٣٨٠ ،

وقد وضح صاحب الكتاب في فهرسه مواد كتابه بالتفصيل فالناظر في الفهرس يكاد يعرف ما في كل صفحة ويدله التنظيم الدقيق للفهرس على موضع كل جزئية من الفكرة العامة . والحق ان ترتيب الموضوعات في الكتاب ـ الذي يدل عليه الفهرس ـ مثال يحتذى في التبويب العلمي وخاصة في موضوع متشعب مثل موضوع علم اللغة ولناخذ لذلك مثلا ما جاء في

الباب الثالث : النحو

ـ ١ ـ نحن نفكر بجمل .
ثم تفصيلات مختلفة عن هذا القسم يتبعها ....
ـ ٢ ـ من التحليل الفونولوجي الى التحليل النحوي .
وبعد التفصيل عن هذا القسم ايضا ياتي
ـ ٣ ـ النحو الوصفي .
أ ـ المورفولوجيا .
ب ـ النظم او التنظيم .
تفاصيل ثم
جـ ـ منهج المورفولوجيا .
تفاصيل ثم
د ـ الفصائل او الاقسام النحوية .
(١) تعريفها وانواعها .
(٢) « الجنس » .
١ ـ الجنس اللغوي لا يطابق الجنس في الواقع.
٢ ـ الجنس كالاصوات والمعاني خاضع للتغير .
٣ ـ امثلة على اختلاف اللغات في التمييز بين الاسماء من حيث الجنس .
١ . في العربية .
٢ . في الفرنسية .
٣ . من بعض اللغات الامريكية والافريقية.

فالرقم بين شرطتين ـ ٢ ـ له معنى غير الرقم وسط قوسين (٢) والاثنان يختلفان عن الرقم متبوعا بشرطة والجميع مختلفة عن الرقم متبوعا بنقطة ٢ .

ولا يظن القارىء الكريم ان هذه مسائل شكلية فهي تدل على وضوح فكرة موضوع الكتاب واستخلاص التفاصيل بدقة مما يجعل قراءة الكتاب سهلة وفهمه ميسرا .

وليس غريبا ـ والدكتور محمود السعران ـ يكتب عن علم اللغة ان يخرج كتابه دقيقا في تبويبه وعرضه فعلم اللغة ذاته يدعو الى دراسة منهجية دقيقة منظمة .

ومن مظاهر هذه الدقة الهوامش الكثيرة التي يضيفها المؤلف الى كتابه فبجانب طبعها بالخط الرفيع فهي دائما في الموضع المناسب وتتعرض لموضوعات لها أهمية كبيرة في الدراسة ولكنها موضوعة بالدقة اللازمة التي لا تعوق وضوح الفكرة العامة في ذهن القارىء .

ومن مميزات الكتاب عدم التحيز لمدرسة خاصة من مدارس الدراسات اللغوية عند الغربيين وهذه سعة افق نحن في اشد الحاجة اليها ونحن بسبيل البدء في ارساء قواعد علم اللغة في وطننا العربي .

وبآخر الكتاب معجم للمصطلحات المرتبة على حسب الالف باء الانجليزية وقد ترجمها الدكتور محمود الى العربية وهذا جهد كبير مشكور يعرفه من يحاولون نقل معارف علم اللغة الى اللغة العربية . ثم هناك ثبت المراجع الذي اشرنا اليه آنفا وهو غني بالمراجع باللغة العربية والانجليزية والفرنسية .

ان مجتمعنا العربي ما زال مترددا في الاقدام على علم اللغة رغم ما كان لاجدادنا القدماء ـ على طريقتهم ـ من بحوث كثيرة في اللغة لا نكاد نحسن فهمها لتخلفنا عن ركب التقدم الانساني في هذا العلم . وان كتاب الدكتور السعران لخطوة واسعة جريئة نحو الاخذ بمبادىء علم اللغة الحديث الذي نحن في اشد الحاجة اليه لنسير في ركب الحضارة ولنبني وطننا العربي على الاسس العلمية السليمة .

محمد احمد ابو الفرج
المدرس بجامعة بيروت العربية

●

الفجــر آت

مجموعة شعرية ـ هلال ناجي ـ ؟ صفحة ـ ؟ مطبعة

يشرفني تحية الانسان في شخص هلال ناجي (١) ، ويسرني ان احييه واحيي القومية والتحرر في ديوانه . في ديوان الفجرآت قصائد ثورية قوية تنم عن روح الكفاح الصلب الى جوار عاطفته الانسانية نحو ابنائه واخوته وقصائده في الحنين الى مراتع الصبا ومفاتنها .

لقد جمع الشاعر بين العمودي والجديد في ديوانه ، ومن الناحية الفنية فضلت شعره الجديد لاني احيانا لاحظت صعوبة في القافية في القصائد العمودية فبعض القوافي في القصائد العمودية زائدة ، مثال ذلك قوله :

والعاملون على توحيـد أمتنا   والباذلون شبابا زاهيا وصبا

فالصبا هو الشباب . ومثل كلمة « الرزايا » فهي ليست شعرية ، وهناك الفاظ نثرية كقوله :

قولي لهم : هل تهد البغي ثرثرة   وهل يطيح بطاغ حفظنا الادبا

فعبارة « حفظنا الادبا » نثرية في نظري .

وهذا لا يقدح في قصائد روائع في الديوان مثل قصيدتـه (اليد الممدودة) ففيها رؤيا شعرية في غاية التاثير والقوة وهي تمتاز بالصور المؤثرة ، وانني افضلها من الناحية الفنية ومن الناحية الانسانية لان فيها رؤيا شعرية عظيمة . استمع الى قوله :

« يا بيدر ازهار غضة ـ يا نبعا ثرا من فضة ـ يا سرب كنار ـ يا اطفال ـ في غدكم في حلم الاجيال ـ لا تنسوا ما فعل الاعداء ـ لا تنسوا طفلا من سيناء لا تنسوا يا مجد الزيتون ـ يا حلم قلوب وعيون ـ يا اطفال ـ الجو رصاص ومدافع ـ حسن عاد الى البيت من الشارع ـ والقنبل يطمس صرخاته ـ وغبار الدار المنهدم ـ وبقايا نار ودخان ـ تاكل دارا كانت عشا ـ للحب فشاء القرصان ـ ان ينحر عبد الانسان .

ويشد الهول عيون الطفل الى كف ممدودة ـ بين الانقاض ـ كشراع في بحر الاحزان ـ يومىء كالنجم بلا اجفان ـ وبرغم غبار ودخان ـ ورصاص الوف الفيلان يمضي حسن عبر النيران ـ زحفا زحفا ـ وبقايا نار تكوي جلده ـ تخرق ثوبه تحرق اجفان العينين ـ تلسع خديه وجبينه ـ ودخان يدمع عينيه ـ ويضيق انفاس الرئتين ـ وحبيبي يستانـف زحفه ـ ويشد يشد على كفه ـ ليعانق كفا ممدودة ـ كف هزت مهد الصغر ـ كم منحت ثديا درارا ـ كم نقشت ثوبا وازرارا ـ وهي اليوم كف تمتد الى الله ـ تساله رد العدوان ـ من تحت جدار متهدم ـ في (شرم الشيخ) المهدومة .

وصغيري فوق تلك الكف ينثال حنينا ـ يلثم الكف ويغرقها دموعا وانينا واللوعة تطبع صرخاته ـ وتضيع الصرخات الطفلة ـ ما بين دوي وازيز ـ ويسيل الدمع المدرار ـ من نبع العين الفوار .

ويكفين بلون الزنبق عند الفجر ـ بعمر بنفسجة الدار ـ ينبش تربا.

---

(١) خلاصة المحاضرة المذاعة من البرنامج الثاني ـ خاصة بالاديب .

والدرب بعيد ـ وعلى غفلة ـ يهوى عامود محترق ـ وتكون الاه وداع صباه .

جفنان انطبقا كالفلة ـ كالنحلة اغفت في نهلة ـ كالخصلة نامت في خصلة خمدت منه الانفاس ـ عاد الرأس الى الكف الممدودة ـ لينام ليبحر في رقده ـ كف نام عليها قبل اليوم ـ لكن الرحلة هذا اليوم ـ ستطول الى الابد ـ حتى يبلغ عرض الله ـ في اعلى ملكوت الله ـ فيقص ببراءة سوسنة ـ اقصوصة كف ممدودة . »

وهذا هو المعادل الموضوعي للشعور بجسمه الشاعر في رؤيا شعرية ، والذي تحدث عنه « اليوت » . والنسق الموسيقي الجديد وحده استطاع التعبير الجيد عن هذه الرؤيا .

وكذلك قصيدة « رسالة من لاجيء فلسطيني » ففيها انفعال قومي قوي واحساس انساني عميق وتعبير رائع بالصور :

« ويا ابي ـ رسالتي اليك اذ يحملها الاثير ـ رفاقة العبير ـ تسال كيف انت ؟ أين انت ؟ ـ عشر من السنين او تزيد ـ مضت ونحن نجهل المصير وياكل الضياع والقلق ـ نفوسنا ـ وانت في البعيد ـ في (صفد) كالصمت لا تحيد .

فيا ابي ـ ولو نطيق لو نطيق ان نطير ـ لجاءك الاخوة كالطيور كالعبير ـ لكننا بلا جناح نمضغ المصير ـ في خيمة تحرقها الشموس في الهجير تهدها الامطار والرياح اذ تثور ـ ويرفل الامير بالجمان بالحرير ـ والف كاس خمرة تهرق للامير ـ ونحن في الرياح نمضغ المصير ـ في عالم يعيش مخدوعا بلا ضمير ـ فلو نطيق لو نطيق ان نطير ـ لجاءك الفتية كالطيور كالعبير لكننا وما امر وحشة المصير ـ كالطير لكن جنحها كسير .

رسالتي اليك امواج من الحنين ـ تفيض عبر الليل في انين ـ مجرح الوتين ونحن ما زلنا على الدروب لاجئين ـ ترى نراك اذ نعود نكتم الغناء ـ وكالسماء في الربيع تجزل العطاء ـ تنحدر الدموع من عينيك في سخاء ـ من فرحة اللقاء أم يا ترى تؤوب ـ وانت في القبر فما تجيب ـ تشد جذع كرمك اليك ـ وانت في التراب ـ الكرمة المعطاء من بستاننا الجميل ـ لكم لكم اسمعتنا الكثير والقليل عن اصلها عن ظلها الظليل ـ عن كرمها عن ذهب يسيل ـ اقسمت مهما كان لن تحول ـ عن فيئها ـ يا حافظ القسم ـ يا والدي يا نفحة العبير في القمم .

فيا ابي رسالتي ـ لو ان في الديار من يزفها اليك ـ لو ان في الديار اذن قرآت الشوق في النداء في الرنين ـ يا صامدا افديه ان يهون ـ مهما يطفل ليل فانت انت في العيون .

فيا احبانا الذين في صفد ـ سلامنا امانة ـ فلتبلغوا السلام ـ يا اخوة المصير في صفد ـ مهما يطل ليل فنحن عائدون .

فيا ابي لو كلمة ـ تقول كيف انت ؟ أين انت ؟ ـ يا صامدا الى الابد ـ في مشرق الربيع في صفد ـ لو كلمة فنائس القلوب ـ لو كلمة فتبرأ العيون من رمد . »

ومن روائع الديوان قصيدة (بطاقة عيد الى اخي) ففيها انفعال عاطفي وجداني انساني مرهف :

« كصلاة من عبير ـ مثل رشات العطور ـ مثلما النجمة في الظلمة تومي وتنير مثل رف من سنونو جاء من خلف بحور ـ هذه الاحرف في الشوق صلاة من عبير وهي في العيد بطاقة ـ تتحرق ـ تتشوق ـ للقاء الاهل والاطفال ـ اواه ـ وتقلق ـ يا اخي ـ هذه الاحرف لو تدري اشتياق للقاء ـ وهي نبع من صفاء وهي دفقات محبة ـ فاذا ما لمحت عيناك حرفا لا يبين ـ فتاكد ـ ان دمعة لحروف الشوق اصباها الحنين ـ فاستحمت في عبير الحرف وانداحت كموجة .

يا اخي ان يسأل الاطفال عني ـ قل لهم ـ اني مسافر ـ سأعود ـ عندما يأتي الربيع ـ موعدي والزهر والاكمام والعطر الوديع ـ فامر مر الربيع ـ وعلى الافق ضباب ودخان ـ وتخلفت هناك ـ وقرأت القلق المشبوب حبا ـ في العيون الحلوة السود الحبيبة ـ قل لهم : اني مسافر ـ سأعود ـ عندما يأتي الشتاء ـ فيطيب السمر ـ زادنا النار وحب الكستناء ـ وحشايا ثمر البلوط في الليل الطويل ـ واحاديث الصغار المتعة ـ عن إقاصيص (ابي زيد الهلالي) يا اخي .

واذا ما حل عيد ـ وانا محض خيال في البعيد ـ قل لهم ـ اني ارتحلت ـ لالملم ـ انجم الليل واسهم ـ في انبثاق الفجر في ارض العروبة .

واذا طال ارتحالي وغيابي ـ وعلى اوجه اطفالي الصغار ـ لاح يتم رسمته اعين لم تعرف الذلة يوما ـ لا تدع ادمعهم تلثم تريا ـ فالدموع الغاليات هي كالانجم مثواها السماء ـ ارشف الادمع عني بشفاهك ـ فهي بعض الامنيات في اغترابي ـ ثم قبل ... قبل الاطفال عني يا اخي . »

ان قيد القافية يزول في الشعر الحر ، فيجيد الشاعر ، هذا هو احساسي العام والطابع الجديد له قابلية اكثر لذلك .

لقد اهتززت لرثاء الشاعر لاصحاب الكفاح ، وكدت ابكي لشعور الوفاء الجميل ، ان الناقد لينسى نقده ومشاكساته وحذلقته امام هذا الشعور العظيم الزخار . في هذا الشعر صوفية وتفني بروح الكفاح واستبشار بالجهاد ، فالموت له عبير جميل وهو يصور ليالي الكفاح بأنها ليالي فيحاء عطرة ، وهو يتحدث عن الشهيد فيصفه في اطار الرؤيا الشعرية الراضية بالتضحية وبالموت لانه عطر الجنة، ففيها التغني الاصيل ببهجة الاستشهاد.

شعر (هلال) حافل بالثورية وقد وفق في اختيار الشعر العمودي وتفضيله في شعره المحافلي لان النسق الجديد ليس لشعر المحافل والعمودي اكثر ملائمة للمقامات الخطابية في حين ان القصة العاطفية والرؤيا الشعرية يناسبها الشعر الحر . ان الشاعر عنده احساس اصيل بأن بعض القوالب اكثر مناسبة لبعض المواضيع وهو يحسن الاختيار والتمييز . وفي اعتقادي ان شعرنا العربي يتسع للنوعين العمودي والحر معا .

تحية لديوان من خير ما صدر عام ١٩٦٢ ، وتحية لهلال ناجي الشاعر الانسان .

القاهرة

محمد مندور

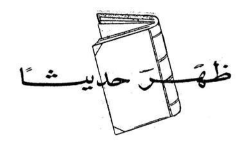
•

عيد الرياض ملحمة لبولس سلامة

كانت الياذة هوميروس تلقن الصبية في معاهد اليونان كما كان يحفظها القادة العسكريون عن ظهر قلب . وبقيت تنتقل مع الاسكندر ـ اينما تنقلت فتوحاته ـ في صندوق ذهبي يقراها فاتح الدنيا كل آن ويجد فيها غذاءه .

ان العرب بعد ملحمة بولس سلامه لن يكونوا مغبونين ان رجعوا اليها في كل ملمة ، فهي لطالب الفرائد ديوان من الحكم لا يدانيه الا نهج البلاغة والقلائل القلائل من آيات المتنبي . وهي لرائد الفكر سجل لعدد من انتصارات الفلسفة الحديثة تدخل لاول مرة على شعر العرب . وهي للاخلاقي مذهب بكامله متماسك الاجزاء انتظمته فضائل الانفة والكرم واقتحام الردى ، وعفة اللسان ، ونجدة الملهوف ، والطموح الذي يبعث الحياة في اللاشيء حتى لتتساءل آي قيمة عربية لم يطلعها هذا الشاعر البحر ، كأنما هي منورة للمرة الاولى لوفرة ما افتن الشاعر في الباسها البريق ، واسماعها من خلال اصطكاك السيوف . اما للمملكة العربية السعودية فهي كل شيء . وفي يقيني ان جزيرة العرب ستتحدث بعد مئة عام باحداث ثلاثة: تأسيس المملكة على يد عبد العزيز، واكتشاف منابع البترول ، وملحمة عيد الرياض .

سعيد عقل



● سلامبو او فتاة قرطاجه – رواية – تأليف جوستاف فلوبير – ترجمة بولس غانم – مراجعة الدكتور ريمون فرنسيس – ٣٤٤ صفحة – حجم كبير – منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر – مطابع دار النصر للطباعة والنشر والاعلان بالقاهرة .

● قنوط – مجموعة شعرية – صفاء الحيدري – صمم الغلاف واللوحات الداخليةبديع باباجان – ١٢٨صفحة – مطبعة التمدنببغداد.

● اعاصير – مجموعة مقالات ومقطوعات ادبية – تأليف الحبيب محمد علوان – ٨٢ صفحة – المطبعة العصرية بتونس .

● الثديبات – تأليف مرجريت ويليامسون – ترجمة عفاف محمد فؤاد – مراجعة وتقديم احمد زكي محمد – ٦٨ صفحة – مصور – منشورات دار المعارف بمصر – مطابع دار المعارف بمصر .

● شعراء العالقة – تأليف رياض معلوف – ٩٢ صفحة – حجم كبير – منشورات المكتبة الشرقية ببيروت – المطبعة الكاثوليكية ببيروت .

● عمان في معركة الحرية – تأليف عبد الله الشيتي – ٧٢ صفحة – محاضرة القيت في المركز الثقافي العربي بدمشق – (لم يذكر اسم المطبعة) .

● ظهور المسيح والمهدي – تأليف ابراهيم الكواز – الجزء الثالث – ٩٦ صفحة – حجم صغير – منشورات اسرة العلوم النفسية والفلك – دار مطبعة التمدن ببغداد .

● في المنفى – رواية – تأليف جورج سالم – ١٢٨ صفحة – حجم كبير – منشورات عويدات ببيروت – مطبعة كرم ببيروت .

● نظريات حديثة في التعليم – تأليف الدكتور فاخر عاقل رئيس قسم علم النفس في جامعة دمشق وخبير اليونسكو وعلم النفس لدى وزارة التربية والتعليم الاردنية – ٨٢ صفحة – حجم كبير – منشورات مجلة رسالة المعلم في عمان – مطابع جمعية عمال المطابع التعاونية في عمان .

● الكندي الرائد الاول للفلسفة الاسلامية ومفخرة الفكر العربي – تأليف محمد بحر العلوم – تقديم السيد محمد تقي الحكيم استاذ الاصول والفقه المقارن في كلية الفقه في النجف – الجزء الاول – الجانب التاريخي – ٢٢٠ صفحة – ساعدت جمعية الرابطة الادبية في النجف الاشرف على طبعه – مطبعة النجف في النجف .

● بنات العشرين – مجموعة شعرية باللغة العامية اللبنانية – ايليا ابو شديد – مصمم الغلاف اسماعيل شموط – ١٥٨ صفحة – مطابع اوفست دار الفن ببيروت .

● النافذة – مجموعة قصص – تأليف محمود الظاهر – مصمم الغلاف محمد سعيد الصكار – ٥٦ صفحة – مطبعة اتحاد الادباء العراقيين ببغداد .

● ادباء بغداديون في الاندلس – تأليف الدكتور محسن جمال الدين استاذ الادب الاندلسي في جامعة بغداد – ٥٢ صفحة – حجم كبير – منشورات مكتبة النهضة ببغداد – مطابع دار التضامن ببغداد .

● الجريمة والمحاكم والاختبار القضائي – تأليف تشارلس تشوت ومارجوري بل – ترجمة اللواء محمود صاحب – مراجعة وتقديم حسن جلال العروسي – تصدير المستشار عادل يونس – مصمم الغلاف محمد سليمان التهامي – ٣٦٤ صفحة – حجم كبير – منشورات دار المعرفة بالقاهرة – مطبعة مصر (؟)

● العلاقات العامة الناجحة – تحرير جمعية تعليم الكبار الامريكية – ترجمة مصطفى حسن علي – مراجعة وتقديم العميد سيد عبد الحميد مرسي – ١٠٠ صفحة – منشورات وطبع دار القلم بالقاهرة .

● كيف تدير المناقشة – تحرير جمعية تعليم الكبار الامريكية – ترجمة العميد سيد عبد الحميد مرسي – مراجعة وتقديم الدكتور محمد عماد الدين اسماعيل – ٨٠ صفحة – منشورات وطبع دار القلم بالقاهرة .

● اندونيسيا .. شعبها وارضها – تأليف ويتس سميث – ترجمة حسن محمود – تقديم حسن جلال العروسي – مصمم الغلاف احمد محمد منيب – ٢٢٤ صفحة – منشورات مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة – مطبعة مصر (؟)

● ادباء في الميزان – ترجمة محمد محمد عناني – تقديم وتعريف عباس محمود العقاد – ١٢٤ صفحة – منشورات مكتبة الانجلو المصرية (؟) – مطبعة مصر (؟)

● جنكيز خان وجحافل المغول – تأليف هارولد لام – ترجمة متري امين – مراجعة وتقديم الدكتور زكي نجيب محمود – مصمم الغلاف محمد سليمان التهامي – ١٥٦ صفحة – منشورات مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة – مطابع مؤسسة طباعة الالوان المتحدة بالقاهرة .

● Amoureux d'une Fée — pièce en deux actes — par Edmond Maouad — 116 pages — Imprimerie Catholique, Beyrouth.

● Egypte — par Anouar Abdel Malek — 384 pages — Editions du Seuil, Paris — Imprimerie Savernoise, Paris.

● Muslim Education in Medieval Times — by Bayard Dodge — 122 pages — Edited by The Middle East Institute, Washington, D.C. — The Garamond Press, Baltimore, MD., U.S.A.

● Arabic Dialect Studies, a selected bibliography — Harvey Sobelman, Editor, Charles A. Ferguson, Richard S. Harrell, R.A.C. Goodison, H. Blanc, T.B. Irving, P.P. Saydon — 106 pages — Center for Applied Linguistics of The Modern Language Association and The Middle East Institute, Washington D.C. — printed in U.S.A.

● Behind The Mountains — by Oliver La Farge — adapted by Judith K. Reed — 128 pages — Berkley Publishing Corporation, New York.

● Point Four Assignment — by Russell Davis and Brent Ashabranner — adapted by Cryssie A. Hotchkiss — 128 pages — Berkley Publishing Corporation, New York.

● Naked Earth — by Eileen Chang — adapted by Aileen T. Kitchin — 128 pages — Berkley Publishing Corporation, New York.

● The Continuing Struggle, Communist China and The Free World — by Richard Louis Walker — adapted by Adolph Myers — 144 pages — Berkley Publishing Corporation, New York.



تأثير الحضارة العربية في المجتمع الاسباني

لم تكن الحضارة العربية الاسلامية مجرد موجة عابرة طافت باسبانيا ثم انحسرت عنها ، وانما كانت حركة حضارية فعالة خلقت في تلك البلاد دولة اجتمعت لها اسباب القوة والسلطان في الاندلس التي ان كانت بمدلولها الجغرافي تتراءى اليوم من خلال حجب التاريخ وكأنها الفردوس المفقود الذي لم تبق منه الا اطياف الذكرى فهي بمدلولها الحضاري كيان حي في جسم العالم الاسلامي بما امدته من تراث ثقافي تمثل في علم علمائها وادب كتابها وشعر شعرائها وتفكير مفكريها .

ثم هي من ناحية اخرى حلقة اتصال بين الشرق والغرب وذلك بحكم وضعها الثقافي والجغرافي ، فهي جزء من العالم الاسلامي من جهة وقطعة من العالم الاوربي من جهة اخرى ، وهذا الالتقاء مع العالمين هو الذي افضى بها الى ان تكون المنار الذي انطلق منه اشعاع الحضارة العربية في اوربا .

ولقد حمل العرب معهم الى اسبانيا تراثا حضاريا لا يبلغ شاوه ما عرفته شبه الجزيرة الايبرية ، فمنذ مطلع القرن الثامن اخذت الحضارة العربية الاسلامية تكسف ما عداها من الحضارات ، ولم يعد البحر الابيض المتوسط بحيرة رومانية بعد ان انتقلت شواطئه الجنوبية والشرقية والغربية الى ايدي العرب ، واصبحت اسبانيا جزءا من امبراطوريتهم الكبرى يبثون فيها من حضارتهم ما اثر في كيانها تاثيرا قويا تناول شتى نواحي الحياة .

ففي المجتمع الاسباني مظاهر لا سبيل الى تفسيرها الا في ضوء التقاليد والعادات العربية ، بقيت على مر الزمان لتدل على تأثير الاسلام رغم زوال سلطانه السياسي والعسكري .

● الحمامات

في مقدمة هذه المظاهر الحمامات في اسبانيا في العصور الوسطى. وان احصاء بسيطا للقرى التي كانت تحتوي على حمامات عامة ، يشكل دليلا واضحا على صدق ما نقول ، فبعض قرى قشتالة التي لا تعرف اليوم الحمامات التي يجري فيها ماء ساخن كانت تضم في القرن الثالث عشر عددا كبيرا من الحمامات العامة ورد ذكرها في لوائح البلدية من ذلك قريتا « زوريتا » و « بريهويغا » في وادي الحجارة وقرية « اوساكريه » في محافظة بطليوس ... ومما نصت عليه هذه اللوائح ان على صاحب الحمام ان يقدم للداخلين اليه الماء الساخن والصابون والمناشف .

والحمام مظهر اسلامي يرتبط بالنظافة والطهارة في الاسلام ، وللمدجنين (١) اثر كبير في تشييد الحمامات في مناطق قشتالة وليون، وقد بقيت هذه الحمامات الاسلامية الى قريب من القرن السادس عشر، يرتادها الرجال والنساء والاطفال ، وقد خصص لكل طائفة منهم يوم من ايام الاسبوع حتى لا يقع الاختلاط المفضي الى الفساد . ثم اخذت تختفي هذه العادة مع الزمن .

وكانت العقوبة التي فرضتها السلطات الحاكمة على الموريسكيين (٢) بسبب الثورة التي اشعلوها في سنة ١٥٦٨ ان تقرر اغلاق حماماتهم وحرمانهم منها وقد احتج احد هؤلاء الموريسكيين « فرانسيسكو » بقوله : « ان الحمامات اقيمت لتنظيف الاجسام وتطهير الابدان ، فاذا حرم على الناس الاستحمام فيها وفي الينابيع والانهار والبيوت فالى اين يذهبون للاغتسال والاستحمام ؟ »

● الحجاب ●

ومن مظاهر الحياة الاسلامية ان يغطي النساء وجوههن ولا يبدين زينتهن . وقد ظل الحجاب شائعا في اسبانيا الى القرن السابع عشر ، ففي كثير من مسرحيات ذلك العهد توجد مواقف اساسها ان تكشف المراة عن وجهها وراسها كما في مسرحية « ترسودي مولينا » التي تحمل عنوان « الغيورة من نفسها » ومسرحية كالدرون دي لاباركا « المختفي والمتحجبة » . هذا وكان يحرم على نساء الموريسكيين ان يسرن سافرات في الطرق العامة ، وكان القوم يستنكرون ذلك اذ كانوا يرون في خروج النساء سافرات اتاحة للفرصة للنظر الى وجوههن .

● عادة الجلوس على الارض

ومن بقايا التاثير العربي جلوس النساء على الارض وهي عادة ظلت منتشرة في اسبانيا الى القرن الثامن عشر ، فقد كن يتخذن ما يشبه المنصة التي لا تكاد ترتفع عن الارض الا قليلا يغطيها بساط وتسندها مساند ، وانتقلت هذه الصورة الى الارجنتين مع الاسبان الذين هاجروا اليها . هذا وكان الكاتب المعروف « ثرفانتس » يعلم ان هذه الجلسة مما اخذه الاسبان عن المسلمين فصرح بذلك في قصة « دون كيخوته » التي سجل فيها عادات عصره وتقاليده .

● عبارات التحية واداب المجتمع

لا سبيل لتعليل العدد الكبير من عبارات التحية والمجاملة التي تتضمنها اللغة الاسبانية الا بردها الى اصول عربية . نورد مثلا على ذلك حين يمدح شخص غرضا او شيئا يراه لدى شخص اخر فيكون جواب هذا : « انه لك » او « اعتبره هدية اقدمها اليك » . وهذه العادة لا زالت موجودة حتى اليوم في بعض المجتمعات العربية وكذلك في المجتمعات الاسبانية . وفي ملحمة « السيد » ان الملك الفونسو لما رأى البطل القشتالي اثنى عليه فكان جواب « السيد » : « اني اهبه لمولاي ان شاء » .

كما ان من الشائع قولهم « ان شاء الله » لكل امر يتعرضون له في حياتهم اليومية ، كما ان الكلمة الاسبانية التي تعني ذلك هي في اصلها كلمة عربية محرفة « اوخالا » . عدا عن ذلك فان الاسبان اذا ما شاهدوا منظرا جميلا او سمعوا صوتا حسنا فانهم يذكرون لفظ الجلالة اظهارا للاعجاب كما يفعل جمهور المستمعين في العالم الاسلامي عقب تلاوة آية من آيات الذكر الحكيم من مقرىء حسن الصوت او فقرة غنائية يصدح بها مغن جميل الصوت فيرددون : الله ، الله ! وقد بقي صدى لفظ الجلالة هذا في « اوليه » الاسبانية التي يرددها القوم لاظهار الاعجاب بمصارع من مصارعي الثيران وهو يراوغ الثور ، او براقصة اندلسية تدق الارض باقدامها على انغام القيثارة .

ومما يتصل بالتحيات وعبارات الاعجاب عبارات الدعاء التي يذكر فيها اسم الله مثل « حرسك الله وحفظك » . ولا يزال اهل الريف كلما ودع واحد منهم صاحبه قال له : « في سلامة الله » وهو تعبير عربي شائع حتى اليوم .

وتتضمن الرسائل الاسبانية صيغا تنفرد بها كان يختتم الكاتب رسالته الى ابيه او من هو اكبر منه بقوله : « اقبل ايديكم الكريمة » .

---

(١) المدجنون هم المسلمون الذين عاشوا في كنف دولة اجنبية .

(٢) الموريسكيون هم المسلمون الذين ظلوا يعيشون في اسبانيا يظهرون النصرانية (تقية) ويبطنون الاسلام .

وقد كانت هذه العادة شائعة بين ابناء الريف في اسبانيا اكثر من شيوعها في المدن الكبرى فالابن يقبل يد ابيه ، والصغير يقبل يد الكبير ، وفي كثير من النصوص الاسبانية ما يدل على انتشار هذه العادة بين الاسبان في القرن السادس عشر .

واذا قيل ان المسلمين قد اخذوا هذه العادة عن البيزنطيين او الفرس فالذي لا شك فيه ان الاسبان المسيحيين قد اخذوها من اهل الاندلس ، وقد ذكر المؤرخ « اميريكو كاسترو » ان اظهار الخضوع بتقبيل اليد على هذا النحو لا علاقة له اطلاقا بالاقطاع الاوربي ، بل هو متاصل في تاريخ اسبانيا ومستمد من التقاليد العربية فيها .

● اقتباس ملوك الاسبان وعظمائهم من العرب ●

انفردت اسبانيا بين سائر البلاد الاوربية ببعض التقاليد والعادات التي تجاوزت الحياة العامة الى الحياة الخاصة للملوك والعظماء . فالفونس السادس ملك قشتالة الذي عاش حقبة من الزمن اثناء منفاه في بلاط المامون من ملوك بني ذي النون ملك طليطلة ، كان يقلد المسلمين في كثير من مظاهر حياته ، وجعل من بلاطه فيما بعد صورة لبلاط ملك من ملوك المسلمين وتسمى بالامبراطور ذي الملتين (الاسلام والمسيحية) فكان اول من تلقب بذلك من ملوك المسيحيين .

وقد عاش في نفس الحقبة مع الملك السابق المذكور الفارس الاسباني المعروف بلقب « السيد » واسمه الحقيقي « رودريجو دياث » ويتضح من لقبه انه لقب عربي ، وقد قضى الشطر الاكبر من حياته في كنف ملوك الاسلام ، وذكر ابن بسام في كتابه الذخيرة انه كان « تدرس بين يديه الكتب ، وتقرأ عليه سير العرب ، فاذا انتهى الى اخبار المهلب بن ابي صفرة استخفه الطرب وطفق يعجب منها ويتعجب » .

هذا وذكر الرحالة التشيكي البارون دي روزنتال الذي زار اسبانيا في منتصف القرن الخامس عشر ما يلي :

« يقيم في برغش الان كونت ذو شان دعا الى قصره عددا من السيدات والرجال ، فكان من جملة الحضور آنسات وسيدات عليهن افخر الثياب لبسنها على نحو ما يلبس المسلمات ثيابهن ، وكن في طعامهن وشرابهن ورقصهن يذهبن ايضا مذهب المسلمات ، وكن يرقصن رقصا رائعا باسلوب عربي وهن جميعا سمراوات من ذوات العيون السود .

وتذكر الكتب ان الكثير من الفرسان الاسبان كانوا يمتطون الاحصنة على نحو ما كان يفعل البربر من ابناء زناته ، ويلبسون الجبة العربية من الحرير الموشى ...

ان هذه المظاهر التي عددناها ليست هي كل ما ورثه المجتمع الاسباني عن العرب بل هي من اهم ما ورثوه . فهناك عدا عن ذلك عادة غسل الميت قبل دفنه ، وطبيعة الكرم التي يتحلى بها معظم الاسبان ، واصناف الاطعمة المقتبسة عن المطبخ العربي ، وميل الاسبان للطرب والموسيقى والغناء والمرح ، وتعلقهم الشديد بمصارعة الثيران التي ينسبها البعض الى اصل عربي دون ان يكون هناك ما يثبت ذلك ، وجو المحافظة الذي يسود مجتمعهم اذا ما قورن ببقية المجتمعات الاوربية ، وحتى لون البشرة الاسمر السائد بينهم والذي يعتبر اثرا من اثار التزاوج واختلاط الدم .

كل هذه الامور تظهر لنا بوضوح مدى التاثير العميق الذي كان للعرب في الحياة الاجتماعية في اسبانيا ، حتى ان الزمن لم يستطع ان يعفي على اثاره حتى اليوم .

دمشق (الجندي) **خالد الصوفي**

●

« ظلام السجن » للمجاهد العربي محمد علي الطاهر

بين الشاعر العراقي جلال الحنفي ، والشاعر المهجري جورج صيدح دون المجاهد محمد علي الطاهر مذكراته ايام كان سجينا في مصر ثم هاربا من السجن خلال الحرب العظمى الثانية قبل عشرين عاما حيث عاش متجولا ومتنكرا في انحاء مصر اكثر من عام ، ثم اصدر بعد ذلك مذكراته عن تلك الحقبة ونشرها في كتاب بعنوان (ظلام السجن) وقد قرظه كثير من الشعراء وفي مقدمتهم الشاعر العراقي جلال الحنفي بقصيدة نشرتها مجلة الشرق البرازيلية وهي :

قرات (ظلام السجن) حتى كانني ... – واياك – فيه موثق ورهين
لك الله فيما قد تحملت من اذى ... لديه مصاب الثاكلات يهون
وعانيت من كيد اللئام متاعبا ... تنوء بها للدارعين فنون
وانت امرء تستمرىء الخطب ساخرا ... على آي وجه في الخطوب يكون
وما لك غير العزم – في كل محنة ... تلفك بالذعر الشديد – معين
هربت من السجن الرهيب مفلسا ... بليل به حبل الرجاء متين
وما البعد عن شر الطغاة بهين ... لمن طاردتهم ألسن وعيون
وما الخوف الا شر كل بلية ... اذا راض جلد الصامدين يلين
ومن خاف راعته الظلال وجره ... الى الذعر وهم تافه وظنون
سواء عليه في المخافة ضجة ... – تلفت اسماع لها – وسكون
ومن لم يعان الخوف يحسب ضلة ... رؤى الخوف جنبا بالرجال يشين
ومن جهل الايام لم يدر انها ... لها في امتحان المخلصين فتون
تنقل من ارض لارض وللعدى ... على كل درب حارس وكمين
وكنت على رغم الطواغيت آمنا ... كانك من غدر الزمان مصون
فما بالهم قد طاردوا كل مخلص ... فضاقت مطامير لهم وسجون
الم يند للاشرار من سوء فعلهم ... تنكيلهم بالابرياء جبين ؟
فلم ينج من عدوانهم وشرورهم ... رضيع بكى في مهده وجنين
ترى أيهان الحر دون جريرة ... وما هو الا بالثناء قمين
أمن خدم الاوطان يجزى مساءة ... ويكرم فيها غادر وخؤون
ألست أبا الشورى التي بجهادها ... لقد كاد يعرو الظالمين جنون
فان كنت قد طوردت منهم فانه ... دليل على صدق الجهاد مبين
فوالله ما خط امرؤ بيمينه ... من الصدق ما خطته منك يمين
وما في (ظلام السجن) الا بطولة ... بها الدهر عن ناس سواك ضنين
وكنت امرىء للمكرمات مسابقا ... لك الخلق الفذ الاصيل خدين
وما زلت والايام تشهد كلها ... بانك كنز في الوفاء ثمين
سيطريك بالاعجاب كل مؤرخ ... اذا كتب التاريخ وهو امين

بغداد **جلال الحنفي**

وقد اعجب شاعر المهجر جورج صيدح بقصيدة الشاعر العراقي ، بعد اعجابه هو ايضا بكتاب « ظلام السجن » وبصاحبه الطاهر ، فبعث بهذه الابيات الى جريدة « الايام » العراقية :

عجبت (ظلام السجن) كيف يكون ... ونورك فيه كالصباح مبين ؟
اذا طوق النجم الغمام سفاهة ... تمزق ، والنجم الحبيس مصون
وما السجن الا مغمد لمهند ... يهادن من عاداه ثم يرين
تهاب الذئاب الغبر ليثا مصفدا ... كأن غيابات السجون عرين
حياتك حرب يصطلي الغرب نارها ... شرارتها ان آلمتك تهون
بامجادها اغنت تراث جدودنا ... واعطت مثالا يحتذيه بنون
دروسا لطلاب المعالي رخيصة ... تعلمهم ان الجهاد فنون
وان كتاب الخالدين شروحه ... بطولاتهم ، والتضحيات متون
كتاب لحكام البلاد شريعة ... وكنز لالباب العباد ثمين
(وشوراك) في حقل الصحافة قمة ... كانك فوق والصحائف دون
حديثك عنها ذو شجون ، ذكرته ... وفي النفس من قطع الحديث شجون
ولولاك ما عادت الي صبابتي ... فعدت أروض الشعر وهو حرون..

باريس **جورج صيدح**

حديث مع القاص فاضل السباعي

١ ـ متى بدأتم بكتابة القصة ؟ ولماذا اخترتم ميدانها ؟

ـ بدأت الكتابة وانا بعد تلميذ في مدرسة التجهيز بحلب . اقول بدأت الكتابة ، ولم اقل كتابة القصة . واذكر أن اول ما استهواني من الفنون الابداعية فن الرسم ، الذي زاولته بما يسع تلميذا في الثانوي . ثم وجدتني ذات يوم وقد امسكت بالقلم لاخط « قصيدة » موزونة مقفاة تعبر عن انفعال وجداني كنت احسني ايامها ارزح تحت وطاته ... وهكذا رأيتني اولي الشعر اهتماماتي الفغل متوليا عن الريشة ... ثم اخذت احاول تدبيج المقالات والدراسات الادبية الصغيرة ، واميل الى القصة تدريجيا دون ان اتوخى الاتجاه اليها ، فأسرني فن القصة وجعلني انصرف عن الرسم والشعر كليهما ، وقد تم ذلك في العام ١٩٥٠ ... اما لماذا كان ذلك ، فلست ادري من حقيقته الا ان نفسي وجدت في القصة مجالا ارحب للتعبير عن الخواطر والانفعالات والاحداث التي تسترعي انتباهي .

٢ ـ يلاحظ انكم من انصار الواقعية ، فهل انتم كذلك ؟ وكيف تفهمون الواقعية ؟

ـ انا من انصار الواقعية في القصة ، نعم . وادب القصة يحمل ، في طياته وفي ظاهره ، رسالة اجتماعية ، رسالة عفوية نابعة من وجدان الاديب لا مفروضة عليه وفق مذهب او معتقد . وما دامت القصة رسالة ، فينبغي لها ان تكون واضحة المحتوى لقرائها ، لعامة القراء . وليس اوضح وادعى الى التاثير في جموعهم من الادب الواقعي الذي يقترف مادته الاولية من واقع الامة . ونحن احوج ما نكون ، كما بينت مرة ، الى سلوك سبيل الواقعية في الادب ، دون سواها من السبل ، في مرحلتنا الراهنة الناهضة . واما انتهاج الاساليب البعيدة عن الواقعية ، المتجافية عن الوضوح ، المغرقة في متاهات لا يفك رموزها الا الراسخون ، فان لقراء العربية ، المنتشرين ما بين الخليج والمحيط ، عذرهم اذا ما اعلنوا قصورهم عن فهم هذا اللون من الوان الادب المغلق! ان علينا ، نحن ادباء العرب ، ان نمتح ، اليوم ، من ادب الواقع ، حتى اذا غدا للغتنا ادبها الحديث الراسخ ، حق لنا ان نجتاز هذا الادب لنكتب على شاكلة احدث ما توصل اليه الابداع الغربي من مذاهب ادبية وفنية ، ومن غوص الى اعماق الغموض ، والاكتفاء بالتلميح ، والنهل من بحر اللاشعور ... ولن ارجو اليوم قط لادبنا ان يتاثر بأمثال الان سيليتو او فرانسواز ساغان ، فهما تعبير عن حضارة قد وصلت الى حد الشبع وتؤذن بالانحدار ... واما امتنا العربية ، فانها تعيد بناء صرحها المنهوك ، انها بالاختصار امة متطلعة متشوفة ، وتحتاج ادبا بناء واقعيا رصينا غير غاضب ولا متحلل من قيود الاخلاق . انني واقعي ، نعم ، ومغرق في الواقعية . وانني لاتمنى ان افهم الواقعية كما فهمها ستندال في « الاحمر والاسود » وبلزاك في « اوجيني غرانديه » وفلوبير في « مدام بوفاري » ، تعبيرا فنيا صادقا عن احساس الوجدان ومطامح الفرد ومطامعه ، وسخائه واثرته ، وحبه وكرهه ، وعن مختلف التناقضات الاجتماعية وما تولده من المظالم والمفاسد والرذائل ... ولكن ـ واجدني الح على هذا الشرط فهو الاساسي ـ بالتعبير الفني الصادق .

٣ ـ من هو افضل كاتب قصة عربي في رأيكم ؟ وافضل كاتب قصة اجنبي ؟

ـ لست اظن ان السؤال ينبغي ان يطرح هكذا . فليس ثمة كاتب افضل من كاتب . لقد نهض ادب القصة العربية بفضل عدد من الرادة الذين حاولوا ، وما زال غيرهم يتابع المحاولة ، النهوض به الى المستوى المطلوب . ان للمازني وتيمور فضلا كبيرا على ادب القصة ، ولولا ما قطعاه وغيرهم من اشواط لما كان لنجيب محفوظ ان يجد الطريق ، بعض الطريق ، معبدا امامه فيتاح له ان يتابع المسير . واستطيع القول ان افضلهم ما بين عامي ١٩٥٠ و ١٩٦٠ محفوظ في الرواية ويحيى حقي في القصة . والجواب ، بعد هذا ، عن افضل كاتب قصة اجنبي ، يبدو لي اشد صعوبة وابعث على الحيرة ، لكثرة « الفضلاء » في دنيا الاداب الاجنبية ، ولان لكل منهم مذهبه الفني وفلسفته الفكرية وجيله الذي برز فيه . ولعل من اعظم كتاب العالم الذين لم تكد تختلف عليهم الاراء تولستوي وتشيخوف من الروس ، وهمنغواي وفولكنر من الامريكيين ، وديكنز من الانكليز ، واما الادب الفرنسي فقممه تشذ عن كل عد وتمثيل.

٤ ـ هل يمكننا ان نقارن مستوانا الادبي بالمستوى العالمي ؟ ومن هم ادباؤنا الذين بلغوا هذا المستوى ؟

ـ ارفض مبدأ المقارنة من اساسه . ليس لان ادبنا ادنى مستوى من الادب العالمي فحسب ، ولكن ايضا لان ظروف ادبنا الناشيء ابن القرن العشرين غير ظروف ادبهم الذي يعلونه فوق تراث عريق ساهمت في اقامته عقول جبارة على مدى اربعة او خمسة من القرون . وادبنا لن يرتفع الى المستوى اللائق ، ما دام على اديبنا ان يعطي نصف نفسه لعمل او لوظيفة يعتاش منها ليكون له ان يمنح بعض النصف الباقي للادب !!

٥ ـ ما رايكم بالموجة الجديدة من الادب النسائي ؟

ـ تقولين « الموجة الجديدة » لتعزلي ادب المرأة عامة الذي بدأ يقف على قدميه بعد جهاد خمسين عاما بذلته مي وسهير القلماوي ووداد سكاكيني وعائشة عبد الرحمن . حسنا ، ان الموجة الجديدة في الادب النسوي تزحف في مد يتزايد عاما بعد عام . هل لي ان اعتقد ان البادئة فيه ليلى بعلبكي ؟ قرأت لها « انا احيا » فوقفت عندها على تمرد ولم اجد فنا قصصيا . ومنى جبور تملك خواطر ثورية ملتهبة مبعثها تلك العقدة الخبيثة ، « عقدة المرأة » . وعند غادة السمان هي الاخرى ثورة ولكن في وعي فني . وكذلك تملك رينه عبودي الوعي الفني مع الهدوء الرصين . وكوليت سهيل ما تزال في ورودها الى شاطيء الذكريات لا تكاد تغني الادب النسوي في شيء . وجورجيت حنوش دلفت الى الطريق قبل عام ونحن ننتظر عطاءها . ومع جدة هذه الموجة لا يمكن تكوين رأي حاسم . اننا بانتظار انحسارها لنعطي رأيا ليس من شك في ان اخواتنا البنيات الاديبات سيضقن به ذرعا ، لان « الغواني يغرهن الثناء » وحده وحده !

« الصفاء »